القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • مايو - يونيو 2003



الطباعة

قوة التعدد.. والانتشار

العدد
المجلد 52

المؤتمر والمعرض الدولي للزيت
طشقند 5 - 7

المؤتمر الدولي للحلول المعلوماتية والاتصال
تونس 7 - 10

الاجتماع السنوي لجمعية منع الفشل التكنولوجي
فرجينيا 14- 18

الملتقى الدولي لزيوت المحركات والتشحيم
يوكوهاما 19 - 22

مؤتمر البتروكيماويات الآسيوي
كوالالمبور 20 - 21

المؤتمر التقني لجمعية معامل الغاز في مجلس التعاون الخليجي
الدوحة 21

معرض البناء والديكورات السعودي
جدة 25 - 29

مؤتمر زيت وغاز بحر قزوين والبحر الأسود
اسطنبول 27 - 28

مؤتمر الاستثمار في قطاع الزيت والغاز الروسي
موسكو 28 - 29

المؤتمر العالمي للغاز
طوكيو 1 - 5

المؤتمر والمعرض السنوي للجمعية الأوروبية لمهندسي وعلماء الأرض
ستافنجر 2 - 5

معرض زيت الشرق الأوسط
البحرين 9 - 12

معرض الزيت والغاز في المناطق المغمورة في الصين (إكسبو)
تيان جين 10 - 12

المؤتمر والمعرض الدولي لخطوط الأنابيب
جاكرتا 10 - 12

مؤتمر الزيت والغاز في آسيا
كوالالمبور 15 - 17

معرض موسكو الدولي للزيت والغاز
موسكو 24 - 27

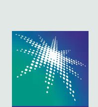
مؤتمر تكنولوجيا البتروكيماويات في أوروبا
باريس 25 - 26

مؤتمر ومعرض الجمعية الدولية لمتعاقدي الحفر 2003
فيينا 25 - 26

تفتح القافلة صفحاتها لتبني المواهب الشابة الواعدة من الجنسين، في أي من مجالات الكتابة، وتدعو الراغبين في الكتابة إليها إلى إرسال أعمالهم إلى العنوان التالي:

أرامكو السعودية
ص. ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
فاكس 3336 873 3 966
للاستفسار هاتف 5039 873 3 966

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبد الله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
عبد اللطيف بن أحمد العثمان

مدير العلاقات العامة
ناصر بن عبد الرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد عبد العزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتيرا التحرير
عبود عطية
خالد الطويلي

فريق التحرير
حبيب محمود
مأمون محي الدين
إبراهيم منصور (القاهرة)
ناجية الحصري (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها

محطات العدد

مايو - يونيو 2003
ربيع الأول - ربيع الآخر 1424

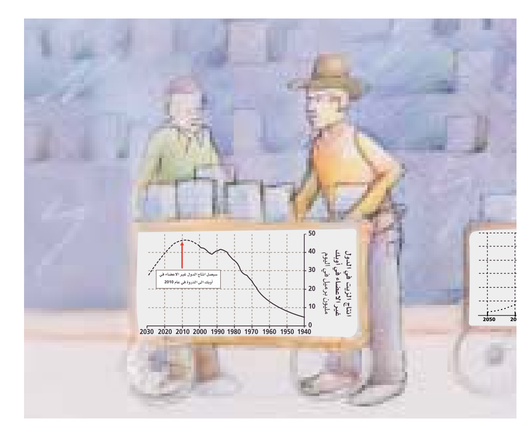
توزع مجاناً للمشتركين
للاستفسار عن الاشتراكات - هاتف: 6948 874 3 966

العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
فاكس: 3336 873 3 966 - البريد الإلكتروني:
alqafilah@aramco.com.sa

رسالة المحرر

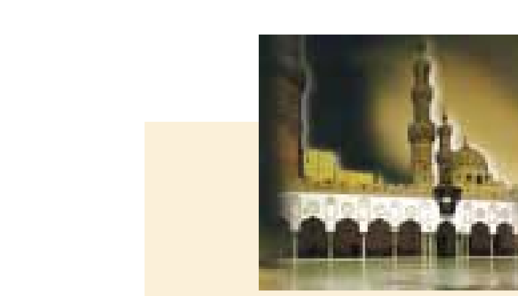
يصدر العدد الثاني من القافلة في رحلتها الجديدة، بينما لا يزال حضور العدد (الخمسيني) الخاص يحظى بمزيد من رسائل القراء، الذين أفاضوا على بريد مجلتهم، من جانب آخر، بالعديد من رسائل الترحيب بالعدد الأول الجديد. تلك الرسائل، بنوعيها، استجبنا لفيضها بزيادة عدد صفحات باب (قافلة القراء) إلى أربع صفحات بدلاً من صفحتين، ومن المؤمل أن يتيح اتساع صفحات البريد فرصة أفضل لتبادل الرأي والمقترحات والأفكار مع القارئ، سواء أكان ذلك حول المواضيع التي تنشرها المجلة أو موضوعات عامة أخرى تحظى باهتمام مشترك.

1 يبدأ هذا العدد بموضوع طالما شغل أذهان الناس، خاصة أولئك الفضوليين من الصحفيين، ونحن في فريق القافلة منهم. هذا الموضوع، الذي تحول مع الوقت إلى سؤال كبير، هو: كيف تُبنى مشاريع الطاقة العملاقة في أعماق الصحارى؟



وبعد الإجابة على هذا السؤال الكبير، ينتقل القارئ إلى مقالة كتبها المهندس عبد العزيز الخويطر، وطرح فيها ذروة إنتاج الزيت وانخفاض هذا الإنتاج، ليصل إلى نتيجة مفادها أن مكانة منطقة الخليج كمنطقة استراتيجية ستزداد أهمية، وبالتالي فإن هذه الأهمية ستنعكس على دور منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك).

2 باب القضايا يتناول، في هذا العدد، قضية مهمة ومُلحة هي قضية التعليم العالي، الذي تطرحه المجلة على جُزأين، يضع الأول أرضية تاريخية وآنية لمسيرة هذا التعليم، بينما سيتناول الثاني، في العدد القادم، إشكالية علاقته بسوق العمل، التي تلح على ضرورة تخريج طلبة وطالبات جاهزين لوظائفها.



العبقرية العربية!

في اتجاه آخر، عَقَّب باب «قول في مقال» على ملف صدر عن مؤسسة صحافية فرنسية كبرى حول «العبقرية العربية». وتزامن هذا التعقيب مع قراءة في ملامح معهد العالم العربي في باريس، الذي أقام معرضا رائعا عن الخيل العربية في مقره بمدينة النور.

3 مناخ العلم والتقنية يبدأ بمقال بيئي حول «الصحراء.. شريكتنا في بلدنا». وقد تم تعزيز هذا المناخ بصفحتين عنوانهما: «زاد العلوم»، تصطاد فيهما المجلة، كل عدد، مجموعة أخبار علمية مهمة. وفي هذا المناخ، أيضا، التفاتة إلى دور «الكومبيوتر» في مجال التأليف الموسيقي.



وتستريح القافلة في رحلتها عند الملف المصور، الذي ينقل صوراً لطيور المنطقة الشرقية. هذه الطيور التي أخذت تتكاثر مع تزايد اهتمامنا ببيئتنا الطبيعية لتشكل بأعدادها وأنواعها وألوانها واحدة من أجمل المفاجآت للمتجول في صحارينا وعلى ضفاف شواطئنا.

4 يأتي بعد ذلك مناخ ثقافة الحياة اليومية الذي ينطلق من ظاهرة العمل بالقناعات الرائجة دون مراجعة: والمراجعة في هذا المناخ حول الرياضة. وتضيف القافلة باباً للسلامة يتناول في هذا العدد مخاطر مستترة تتسبب في مخاطر جمة في حال وقوع حوادث السير.

إلى بغداد

يختار الأستاذ رجاء النقاش للقافلة عيوناً من الشعر القديم والحديث في حقّ بغداد، منبع الفن والإلهام.

5 مناخ الثقافة والأدب، الذي يبدأ بموضوع معهد العالم العربي في باريس، ينقل القارئ إلى رحلة (روائية) قصيرة يراجع فيها الناقد محمد العباس، رواية (الخيميائي) العالمية التي ذاع صيتها. وتختتم المجلة مناخ الثقافة بمقال للدكتور تركي الحمد حول الإبداع والفعل الإبداعي في الرواية.



6 المطبعة ورحلة الكتاب فيها، هي ملف العدد وخاتمة رحلة المجلة في عددها الثاني، وقد تم اختيار هذا الموضوع لأن فريق تحرير المجلة رأى أن من المهم أن يتعرَّف القارئ على هذه الصناعة التي غيَّرت وجه العالم.

وهكذا..

تكون القافلة، (استناداً إلى مطامح قارئها قبل كل شيء) قد خطت خطوة أخرى في طريقها الجديد، بعد أن اتسعت مساحاتها لتشمل موضوعات أكثر ثراءً وتنوعاً.



المحرر

الرحلة معاً

هوامش إعلامية.. على دفتر الحرب

هل لازلت تُعلّق أُذنيك في (راديو لندن) كما كان جدي وأبي، وأنا من بعدهما، نفعل. الـ (بي بي سي)، التي جيرتنا لحساب رسائلها الإخبارية والتحليلية سنين طويلة، أين هي؟ لماذا غابت في أحداث العراق؟ بل أين الـ (سي إن إن)، تلك القناة التي أطلقت ساقيها لريح الأخبار منذ حرب الخليج الثانية وظلت إلى بدء الحرب الثالثة محسودة من كل القنوات، شبيهاتها في الركض وراء البؤر الساخنة حول العالم؟

لقد لاحظت، وربما تكون هذه ملاحظة متصيد، أن نجاحات الإعلام أبرز ما تكون في الحروب. إذا وقعت حرب تصعد صحيفة وتهبط أخرى وتسقط قناة وتنهض أخرى.. ويغيب راديو (بي بي سي)، وكل الإذاعات المسموعة، تحت رعود وبروق الفضائيات التي تشغل الأفق بمراسليها ومرسلاتها ولقطاتها المباشرة لزحف القوات وسقوط الصواريخ وأشلاء الأطفال، والرايات البيضاء للعطاشى والأسرى على أرض المعركة.

أما الحقيقة فإنها تبدو في زحمة الأخبار مثل الخل الوفي، مجرد هاجس يداعب مخيلة الناس، الذين يشتهون أن يروها أو يفهموها على الوجه الذي يحبون. لم تكن الحقيقة مهما بلغت الثقة بمراسل ورسالة إعلامية، عند العراقي كما هي عند الأمريكي.. كل له حقيقته، بناء على ما يريد أن يتصور وبناء على قالب الخبر الذي تغلفه (الميديا) بألوان من الزوايا الخاصة (المقصودة لذاتها). لم يكن في أحداث هذه الحرب، كما لم يكن في حرب قبلها، حقيقة مطلقة أو رسالة محايدة، فالجميع ينطلقون من ذات المرتكز: «الحقيقة هي ما نريد أن نراه على الوجه الذي نتمناه».

لكن، كيف كان حال الإعلام العربي في حرب العراق؟

إذا شئتم فإن الإعلام العربي، خاصة القنوات التلفزيونية، كان في هذه الحرب شديد الحضور والتأثير. وتفسير ذلك عند من لا يرون في العرب (بارقة أمل) أن الأمر لا يخلو من صدفة.. خبراء (الميديا) الأجانب يرون أن الإعلاميين العرب وجدوا وجبة الأخبار الدسمة هناك مفروشة على مد النظر، العراقيون يولونهم اهتمامهم وأولوياتهم، والأمريكيون يختلفون معهم فيما ينقل من زوايا الحرب عبر الكاميرات المسلطة على وقائعها. ولأن التنافس لكسب المشاهد العربي على أشده بين هذه القنوات، فإن بعضها سخَّر كل مايملك من إمكانيات وقدرات و(فزعات) وتجاوزات ليكسب هذا المشاهد، الذي يريد أن يرى حقيقته الخاصة بعيون وآذان عربية. كان هناك، دون شك، علاقة عاطفية حارة بين المشاهد العربي وقنواته، وقد فرضت عليه هذه العاطفة أن يستغني عن زيارة قنوات أجنبية مرموقة، تعرضت، منذ أول يوم للحرب، للقدح في أمانة منقولاتها من الأخبار والصور. لكن هل نجح المواطن العربي في الوقوف على الحقائق في أرض المعركة الواسعة، أو ربما فاتته بعض الحقائق من مصادر أجنبية، في ظل تمسكه بالحقيقة الخاصة، المشفوعة بالعاطفة والانتساب إلى اللسان العربي؟

إن أخشى ما يخشاه بعض المراقبين الإعلاميين العرب، وقد تحدثت معهم عن حضور أخبار الحرب الساخنة المشهود في قنوات عربية، أن تكون هجمة هذه القنوات على (السبق) الإخباري بيضة ديك، سرعان ما تنكسر ويضيع ناتجها، لكن بعض المتفائلين يستشهدون بمنقولات الأمريكان أنفسهم والألمان والفرنسيين عن القنوات العربية، ليؤكدوا أنها انطلقت فعلاً في اتجاه جديد بعد طول انتظار، والفضل لمن في هذه الإنطلاقة؟ يجيب الخبراء المتفائلون: الفضل لـ (صناعة الإعلام)، هذه الصناعة القديمة في الغرب والحديثة في عالمنا. لقد قامت هذه الصناعة منذ سنوات طويلة على استثمارات رجال الأعمال وتجنبت ما استطاعت المسارب المحكومة بالضعف والبيروقراطيات. وحين انتبه العرب إلى هذه الصناعة الخطيرة صاروا قادرين على صياغة رسائلهم الإعلامية بأنفسهم.

رئيس التحرير



ترحب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

إلى.. رئيس التحرير

العدد الخمسيني والفهرسة

تلقيت ببالغ الشكر والتقدير نسخة من العدد الخاص من مجلة القافلة وذلك بمناسبة مرور خمسين عاماً على صدورها، ويطيب لي أن اشيد بالجهود الجيدة التي بذلت في إصدار هذا العدد والفهرسة الجيدة لمحتوياته، متمنياً لسعادتكم وللعاملين في المجلة دوام التوفيق والنجاح.

السفير
إبراهيم السعد البراهيم – القاهرة

تلقيت بيد الشكر والتقدير نسخة من العدد الذهبي لمجلتكم الغراء لمناسبة مرور خمسين سنة على صدورها. وفي هذه المناسبة لا يسعني إلا أن أعرب لسعادتكم ولمجلتكم عن تمنياتي بدوام التوفيق والنجاح.

خالد بن محمد الخنيني
الملحق الثقافي في سفارة المملكة بدمشق

حسن الإخراج

تلقيت ببالغ الشكر والتقدير العدد الجديد من مجلة القافلة بعد إعادة إصدارها، والذي احتوى على جودة المضمون وحسن الإخراج، الأمر الذي أبرز جهودكم المبذولة والعاملين معكم في القافلة. وإنني إذ أشكركم على هذا الإهداء أتمنى من الله العلي القدير لكم دوام العون والتوفيق.

سفر بن عبد الله القحطاني
مدير عام فرع وزارة الخدمة المدنية بالمنطقة الشرقية

شابة.. بحلّة التطور

أود أن أهنئكم بمرور خمسين عاماً من الجهد والعطاء على مجلة القافلة التي أصبحت شابة ترتدي حلة التطور وتواكب العالم الحديث. أشكركم على تزويدي بهذا العدد الخاص الذي ينبئ عن خطوات حثيثة نحو النجاح المتميز.

فهيد فهد الشريف– الرياض
وكيل محافظ الهيئة العامة للاستثمار

ذكريات.. ورجال

ببالغ السرور تلقيت العدد الخاص من مجلة القافلة، وهو يحكي خمسين عاماً من تاريخها، وكم كنت سعيداً وأنا أتناول مواد المجلة وهي تسرد تاريخها الحافل بمختلف الفنون والآداب والعلوم والذكريات الجميلة لرجال أوفياء. ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن المجلة حازت مكان الصدارة والسبق بين مثيلاتها من المجلات.

القاضي
فهد بن صقر القحطاني
المدينة المنورة

مديداً من العمر

لقد ظلت القافلة منذ انطلاقها وعبر نصف قرن من الزمان تغذ السير بخطى واسعة في مسالك النور ودروب المعرفة.. مديداً من العمر للقافلة الحبيبة يمدها دعاؤنا المخلص بمزيد من السير والريادة والإبداع والعطاء، ولرجالها العاملين المخلصين إضطراد النجاح والتأييد والتوفيق بعون الله..

الأستاذ الدكتور عبدالله محمد الشعلان
جامعة الملك سعود -الرياض

الإعداد والتبويب

تسلمت العدد الخاص وعدد محرم وصفر من القافلة، ولقد هالني هذا التطور المذهل في الإعداد والتبويب والإخراج، وكذلك المادة العلمية الرصينة، التي بُذل فيها جهد جبار وأصبح القارئ يلمس بصماتكم عليها والتي لا تخفى على منصف.

عبد الرحمن بن محمد الفراج
مدير إدارة شؤون الموظفين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية-بريدة

تغيّر لافت

من دواعي سروري أني استلمت العدد الجديد من مجلتكم الغراء، وأسعدني كثيراً أن أجد فيه هذا التغيير اللافت شكلاً ومضموناً، مع النظر إلى تنوع الموضوعات والأخذ بالتوسع وإدخاله ضمن الحلة الجديدة، ولا يسعني إلا أن أهنئكم على هذا النجاح المتميز والإنجاز الجميل.

الدكتور محمد بن عبد الله الشخص
الهيئة الملكية-الجبيل

حبّي لها.. يزداد

استلمت العدد الجديد من مجلة القافلة العريقة والتي يزداد حبي لها عدداً بعد آخر، إلا أن حبي للعدد الجديد هذا جاوز الحدود، وذلك للأسباب التالية: صورة الغلاف رائعة ومتميزة، حجم العدد مناسب جداً، كما أن الموضوعات التي تضمنها العدد ممتازه جداً، فكرة إصدار المجلة كل شهرين فكرة متميزة.

الأستاذ الدكتور صالح علي الشمراني
قسم الجغرافيا -جامعة أم القرى

الاستطلاع العربي

نهنئكم من القلب على الحلة الجديدة التي ظهر بها العدد الجديد من القافلة، لما فيه من عمق في التحرير وأناقة في الإخراج. غير أن ما لفت نظرنا هو غياب الاستطلاع العربي المصوّر الذي كان من أهم ما في القافلة في سنواتها الماضية، ولا يزال أينما كان العمود الفقري الذي تقوم عليه الصحافة الشهرية المصورة، كما أن مثل هذه الاستطلاعات هو ما أعطى القافلة في ماضيها طابعها العربي الشامل، فكانت منبراً يطلّع من خلاله الشامي على معالم المغرب، ويتعرّف المغربي على معالم الجزيرة العربية، ويزيد من الروابط العاطفية بين مختلف أرجاء بلاد العرب.

ناصر ابراهيم الجبلي
حمص – سوريا

القافلة: إجمالاً لم يغب الاستطلاع عن المجلة، فكثير من موضوعاتها يأخذ صفة الاستطلاع، مثل (الملف) في آخر صفحاتها. فقط الطريقة هنا فيها محاولة للابتكار والابتعاد عن التقليدية ما أمكن ذلك.

من السويد

يعرب المركز الثقافي الإسلامي، في مدينة فسترفيك في السويد، عن شكره لوصول مجلة القافلة بانتظام إليه عبر هذه السنين الطويلة، هذه المجلة الراقية والمتميزة التي استطاعت أن تجتاز الحدود والبحار بجدارة عالية، وإننا إذ نفخر بكفاءة القائمين عليها، نتقدم لكم بخالص الشكر على جهودكم المباركة فيها، ونهنئكم على مسيرة الخمسين عاماً، المليئة بالتفوق والنجاح.

خالد عبد المجيد
مدير المركز الثقافي الإسلامي بالسويد

ظاهرة ثقافية

يعد العدد الجديد ظاهرة ثقافية علمية مميزة، يمكّن القافلة من أن تنافس المجلات ذات القيمة الكبيرة في القرن الحادي والعشرين. فقد لاحظت تغيراً كبيراً من حيث المادة العلمية والأدبية والثقافية بما يتوازى مع متطلبات الوقت، وكذلك في التخطيط وفن الإخراج الصحفي الذي لم نألفه في السابق. أبارك لكم ولأسرة تحرير القافلة، وآمل لكم مزيداً من التوفيق.

د. زكريا بن يحيى لال
جامعة أم القرى

القرّاء.. بلا استثناء

سعدت باطلاعي على مجلة القافلة في ثوبها الجديد من حيث المحتوى الصحفي المتميّز والإخراج الفني المتطور والذي يمكنها من مخاطبة فئات القرّاء بلا استثناء.. سائلاً الله العلي القدير أن يوفقكم ويسدد على طريق الخير خطاكم.

د. عبدالرحمن بن ابراهيم المديرس
مدير التعليم بمحافظة الأحساء

كنّا صغاراً

أهنئكم لمناسبة مرور خمسين عاماً على مسيرة مجلتنا القافلة، التي لم يكن هناك عند ظهورها أية مجلة أخرى في بيوتنا وعقولنا. كنّا صغاراً نتداول صورها ومواضيعها في فصولنا. ولا زالت حتى اليوم خفيفة الظل نترقب صدورها، بعد أن كبرنا وصرنا متقاعدين. ومن كل قلبي أتمنى لها الاستمرار لتبقى لنا ولأبنائنا والأجيال الآتية منبراً للثقافة والعلوم.

عبدالمحسن بن عبدالله آل الشيخ
الرياض

ملاحظات إخراجية

أبارك لكم الحلة القشيبة التي صدر بها العدد الجديد وفي الوقت نفسه أود إبداء ملاحظات تتمثل في الآتي: أولاً: ألا يطغى الإخراج الفني على إبراز المحتوى العلمي والأدبي. ثانياً: اختيار الألوان المقروءة للطباعة، أي إختيار اللون الأسود بدلاً من الألوان الأخرى التي تتعب القارئ، كاللون الأصفر والرمادي وما قاربها. ثالثاً: تكبير حجم الحرف لتسهل قراءته وخاصة لكبار السن.

الدكتور عبد العزيز بن عبدالله ابن لعبون – الرياض

القافلة: شكراً على ملاحظاتك وسوف نأخذ بمبدأ تفادي الألوان التي تجعل القراءة صعبة، أما حجم الحرف المختار فهو في موقع وسط يجنبنا تضخم عدد الصفحات.

تمنيات بمائة عام

تلقيت بكل غبطة إصداركم المتميز للعدد الخاص بمناسبة مرور خمسين عاماً على صدور المجلة. وأغتنم الفرصة لأهنئكم وجميع الأحبة في أسرة التحرير، على ما تبذلونه من جهود قيّمة لإبراز مكانة القافلة التي تنير للجميع طريق العلم والثقافة والمعرفة عبر عقود من الزمن، تعرفنا من خلالها على كثير من الأدباء والمثقفين، إضافة إلى البحوث العلمية والتاريخية وغيرها، التي تميّزت بها القافلة. فهنيئاً لنا بها وهنيئاً لها بكم. مع تمنياتي أن نحتفل إن شاء الله بمرور مائة عام على صدورها.

محمد بن عبدالله السدراني – عنيزة

تاريخ القافلة.. وضرورة التجديد

تلقيت شاكراً إهداءكم القيّم المتمثل في العدد الجديد المطوّر من مجلة القافلة الغرّاء، والذي ألفيته حافلاً بالموضوعات المتنوعة الشيقة، وفي حلة إخراجية حديثة زاهية. وإذ أهنئكم على هذا العدد المتميز، كلي ثقة بالمزيد من التطور والنجاح للمجلة تدعمكم خبرتكم وكفاءتكم الإعلامية المتميزة، غير أنني آمل في خضم الرؤية الجديدة التي تتبنونها ألا تغفلوا الحفاظ على شخصية القافلة والتاريخ الذي سطّرته، وأعني هنا استلهام الروح مع إيماننا بضرورة التجديد.

مدير عام دار اليوم
صالح بن علي الحميدان – الدمام



حُدَاءُ الغريب

مِنْ ها هنا مِن نَخْلةٍ وَسَماء
مازجتُ حِبْري بالرّؤى الخضراءِ
مِنْ ثوب صحراءٍ على جسد الدّهورِ
شَبَكْتُ خِيطانَ الهوى بردائي
أنّى قصدتُ، فثمَّ بئرٌ دافقٌ
بالمُعْجزاتِ، يصبُّ في الأمداء
أنّى رجعتُ، وجدتُ مصباحاً من
الصّلواتِ، يُشْعلُ حَلْكةَ البَيْداء
روحي تُعمِّقُ في المكان جذورَها
والشّعرُ يُنْتَشُ مِنْ شُقوق إنائي
فكأنّها (الدمام) عُرْوةُ (تَدْمرَ)
المحبوكةَ الأطرافِ بالصّحراء
وكأنّها (حمص) الخجولةَ في بلاد
الشام تَلْبس مِعْطفَ (الأحساء)
الذّكرياتُ تُعيدني لحضارةٍ
غَرَسَتْ جذورَ الضُّوءِ في البطحاء
الذّكرياتُ تُضيئُني ببروقِها
فأضيءُ أوراقي بنارِ (اللاّء):
لا، لنْ أُوسِّدَ طِفْلةَ الكلماتِ، قاموسَ
الحنينِ، على سريرِ بكاء
لا، لنّ أحنَّ، ولنْ أجنَّ، ولن
أسلِّمَ (عَنْتَر العبسيِّ) رِمْحَ رجائي
أأظلُّ أُصغي للجنونِ بحكمتي؟
لأموت مِثْلَ الدودةِ العمياء؟!

حسّان عبدالباسط الجودي – سوريا

أين المرأة..؟

أشد على يدكم مهنئاً بمناسبة صدور القافلة في ثوبها الجديد، وأغبطكم على هذا الإنجاز الكبير والقفزة النوعية والروح الجديدة التي بعثتموها فيها. ومن منطلق الحرص على التطوير والقدرة على حصر النواقص بعكس الإيجابيات، سأسرد بعض ما ارتأيت أنه يحتاج إلى مزيد من التركيز والاهتمام:

- خطوط العناوين الكبيرة غير جذابة ومن المؤكد أن هناك خطوطاً أجمل بكثير، بل يمكن تصميم خطوط خاصة بالمجلة.
- النص الشعري بدا ضائعاً في زحمة المواد، ولو أنه أخذ لوناً وخطاً مغايراً، ولو بكتابته يدوياً كلوحة فنية، لأعطي بعداً آخر وعمقاً أبعد.
- المواد مجهولة الكاتب تفقد شخصيتها بغياب توقيع كاتبها وهي كثيرة، وكذلك المواد الموقعة برموز.
- وأخيراً مشاركة نصف المجتمع الآخر، أين هي؟ لا أرى للمرأة حضوراً في المجلة سوى مادة واحدة عنها إن لم أكن مخطئاً.

يبقى الإصدار فوق كل ذلك رائعاً ومبدعاً والكمال لله وحده.

محمد أمين أبو المكارم – الظهران

القافلة: نشكرك على ملاحظاتك الدقيقة التي سوف تكون موضع اهتمام فريق التحرير وما يمكن أن نؤكده لك، أن مشاركة النصف الآخر موضع ترحيب دائم.

عتاب محق

قرأت العدد الخاص من مجلة القافلة بلهفة من الغلاف إلى الغلاف مستمتعاً ومستفيداً، إنما عتبت عليكم عتاب الأخ والصديق المحب لسببين: أولهما عدم التعرض إلى اسمي في «ديوان القافلة» صفحة 127 لا من قريب ولا من بعيد، رغم أن القافلة نشرت لي العديد من القصائد منذ العام 1982م. وعند ذكر سوريا اقتصرت الدراسة القيمة على ذكر الشاعر إلياس قنصل، وفي سياق الحديث عن نشر الشعر الحديث صفحة 130 اقتصرت الدراسة على ذكر المكرّسين من الإعلام فقط دون التعرض إلى ذكر شاعر واحد من سوريا. أما الأمر الثاني فهو أني لو علمت بالعدد لخصصت القافلة بكلمة من القلب تدرج ضمن باب «إلى القافلة في عيدها الخمسين».

مصطفى النجار– سوريا

القافلة: نشكرك على عاطفتك، ونقدر لك مثل هذه المتابعة الدقيقة، فالملاحظة التي تبديها صائبة ومحقة، خاصة وأن لقصائدك مكانتها في تاريخ القافلة.

كتّاب القافلة

كم كان سروري عظيماً وأنا أتصفح العدد التذكاري لبلوغ القافلة الخمسين من عمرها، لما حواه من ملفات حول تطورها ومسيرتها ورحلتها، إذ أنني من متابعي هذه المجلة منذ عام 1380 هجرية، وأتقدم منكم باقتراح متواضع، وهو جمع بعض المتماثل في كتاب دوري يصدر باسم كتاب القافلة، فمثلاً القصائد تحمل اسم ديوان القافلة وهكذا..

أحمد بن إبراهيم بن أحمد الديولي
عضو رابطة الآداب الإسلامية العالمية
الأحساء

القافلة: فكرتك وردت حرفياً في ذهننا عندما كنا نعد العدد الخاص، وهي لاتزال موضع بحث.

لا زالت تسير

أسعدني كباحث ظهر اسمه مراراً لأكثر من عقد من الزمان، أن يجد مطبوعته الأثيرة قد بلغت من العمر خمسين عاماً، وأعتقد جازماً انه لا توجد أية مطبوعة على الساحه الثقافية العربية تطاول القافلة في شموخها هذا، فكثيرة هي المجلات التي ظهرت ثم اختفت فجأة إلا القافلة.. لا زالت تسير، وإن شاء الله ستظل تسير، فتحية لكم من سويداء القلب بهذه المناسبة.

الدكتور مصطفى محمد طه – بيروت

بالشفاء العاجل..

منذ فترة توقف القلم في يدي عن الكتابة لظروفي الخاصة والصحية غير المستقرة، ولكن ما دعاني إلى أن أكتب الآن هو أن أزف التهنئة من القلب لمجلة القافلة التي تشرفت بنشر بعض أقصوصاتي على صفحاتها العامرة.. وها هي في عامها الخمسين تنبض بألوان المعرفة والثقافة، ودمتم رواداً للعلم والثقافة الرفيعة ولخدمة الكلمة النيّرة الهادفة.

رستم كيلاني – القاهرة

القافلة: ندعو الله العلي القدير أن يمنّ عليكم بالشفاء العاجل، وقد أسعدتنا رسالتك وعاطفتك النبيلة.

الهدية إلى صاحبها

أعبر لكم عن أمنياتي في أن يكون عطاؤكم على مستوى طموحاتكم، وأرسل لكم نصاً شعرياً هو تحية للشاعر الأستاذ جاسم الصحيّح على قصيدته التي حيّا فيها القافلة في عيدها الخمسين.

عبداللّه محمد الهاشم–الدمام

القافلة: نشكرك على ماتكنه للقافلة وسنعمل على إيصال قصيدتك الجميلة إلى الأستاذ جاسم الصحيّح.

الثوب الجديد

تلقيت ببالغ الغبطة والسرور العدد الخاص والعدد الأول من المجلد 52 من مجلة القافلة الغرّاء. وأحيطكم علماً بأني أحد قرّاء القافلة القدامى، وأحتفظ في مكتبتي بأربعة مجلدات منها. وقد حظيت بإعجاب قرائها، وحازت على رضاهم وهي في ثوبها الجديد، لما تزخر به من شتى صنوف العلم والمعرفة وأصبحت حقاً بمثابة موسوعة ثقافية علمية أدبية وتاريخية. وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على ما يبذله فريق التحرير من الجهود الجبارة في سبيل إخراجها بهذه الحلة القشيبة، وبما تضمه بين دفّتيها من الموضوعات التي تناسب مستويات جميع قرّائها. وإني إذ أهنئكم بمناسبة مرور نصف قرن على صدورها، أتمنى للقافلة الحبيبة مزيداً من التقدم والازدهار.

محمد أحمد علي البقشي – الهفوف

لماذا التأخير؟

أشكركم على انتظام وصول القافلة بين محب وحبيب. وعلى الرغم من تقديري لغزارة ما يصلكم من مواد، فقد لاحظت أنه مضى وقت طويل على آخر عمل نشر لي في القافلة. آمل أن تكون أعمالي التي أرسلتها تنسجم مع خطة النشر لديكم.

درويش الأسيوطي – أسيوط، مصر

القافلة: وصلتنا قصيدتك، وسينظر فريق تحرير المجلة في نشرها قريباً.

التزوّد.. بصورة منتظمة

بعد التقدم من سيادتكم بوافر الشكر والامتنان على تفضلكم بتزويدنا بنسخة من العدد الجديد من مجلة القافلة، أرجو تفضلكم بتزويدي بصورة منتظمة بإصدارات مجلتكم الموقرة على عنواني البريدي الجديد. وأنتهز الفرصة لأكرر لكم خالص مودتي، وللإخوة أعضاء هيئة التحرير بالمجلة فائق التحية والتقدير.

الدكتور عبدالله عبدالرحمن يتيم
المنامة

القافلة: أسعدنا اهتمامك بالمجلة، وستصلك إلى عنوانك الجديد بانتظام إن شاء الله.

نعمل لغدنا

وحّد تَسُدْ!

دحض العلم الحديث مقولة أن القوّة تكون لمن لديه قدرة على زرع الفرقة بين الآخرين. سقطت هذه النظريّة التي كان يعتزّ بها سراً أصحاب النفوس الصغيرة والمريضة.

تؤكد الأبحاث والدراسات التي تتناول مفاهيم وقيم العمل المعاصر على أن النجاح حليف الفريق المتحد لا الأفراد المتفرقين، ولا يخلو كتاب من كتب الإدارة الحديثة من الحث على العمل الجماعي وتشجيع روح الفريق.

واذا كان هذا المبدأ صحيحاً في كل العصور فيبدو وكأنه أكثر ملاءمة لعصرنا الحالي، حيث ثبت أن أعظم الابتكارات تتحقّق اليوم على يد فريق متكاتف.

لقد انتهى عصر المعرفة المغلقة والمحتكرة التي كان يتباهى بها البعض على الآخرين.

الفرد أقوى بالفريق وكل نجاح للفريق هو مكسب للفرد.. ويزيده كسب الفريق كسباً. والحقيقة أن أكثر أفراد الفريق مكانة هم الأكثر مساهمة ليس فقط في مهمة الفريق العامة، بل في تعزيز روح الفريق أيضاً.

إن أقصر طرق النجاح الشخصي هي أن تساعد الآخرين لينجحوا بالتعاون مع بعضهم البعض وأنت منهم ومعهم.

العلم قبل المبدأ أسقط ما ساد طويلا
فرّق تسد
والعلم قبل المبدأ أثبت بالبرهان:
وحّد تسد.

مشاريع الطاقة العملاقة.. كيف تُبنى؟

الشيبة والحوية بالأمس، واليوم حرض. ثلاثة أسماء خرجت من تواضع الاكتفاء بالإشارة إلى أماكن نائية في صحارى المملكة العربية السعودية، لتتحول إلى أسماء بارزة على خارطة صناعة النفط والغاز في العالم. فكيف نشأت هذه المشاريع الصناعية ؟ وكيف تبدو لعين من لا يعرفها؟ الزميل عبود عطية الذي لم يكن قد زار أية منشأة نفطية سابقاً، توصل إلى بعض الإجابات، بعد أن تعرّض، أمام حجم هذه المنشآت، لمفاجأة لم يتوقعها!



عشرة آلاف عامل من ست وثلاثين جنسية مختلفة في ورشة واحدة، أكثر من أربعين مليون ساعة عمل من دون حادث واحد مهدر للوقت، والمشروع برمته سيكون جاهزاً قبل خمسة أشهر من الموعد المرتقب، وبتكلفة تقل بنحو الربع عن الموازنة التي كانت مرصودة له في الأساس. ومع ذلك، عندما سألنا مسؤولاً في أرامكو السعودية كيف تبني شركته مشاريعها الكبرى هذه، أجاب بهدوء واضح: «تماماً كما تبني بيتاً من ثلاث غرف ومطبخ». هذا التبسيط المتناهي لا يفترض أن نأخذه كما هو، فالمصدر المسؤول ذاته أضاف قائلاً: «عندنا نظام إدارة مشاريع موحد، تسير بموجبه كل المشاريع من الصغير إلى الكبير. لذلك فإن (طقوس) بناء المشروعات الكبرى في الشركة تجعلنا دائماً ننظر ببساطة لهذه المشروعات، على العكس ممن ينظر لها من الخارج».

المشاريع التي نتناولها هنا تبدو أقرب إلى أهرامات مصر منها إلى بيت صغير، وزيارة واحد من هذه المشاريع تكفي لتحريك عشرات الأسئلة في ذهن الزائر، وتفسر عمق الإحساس الأولي تجاه بساطة الجواب الذي سمعه.

من هو قائد الأوركسترا الذي يضبط أداء عشرة آلاف رجل، موزعين على عشرة مقاولين، يعملون تحت سقف مشروع واحد

حَرَضْ

بعد نحو ساعة من انطلاق السيارة على طريق شبه مقفرة تخترق الصحراء غربي مدينة الهفوف، تبدد الملل من رتابة المشهد وفراغه بظهور عدد من الشاحنات راح يزداد تدريجياً. كما ظهرت أعمدة الكهرباء العالية، والتي أخذت تقترب من الطريق أكثر فأكثر إيذاناً باقترابنا من مكان مأهول. وهناك، وسط لا شيء، وفوق خط الأفق حيث محا الضباب الحدود ما بين اصفرار الرمال وزرقة السماء، بان من بعيد ما يشبه الغابة الرمادية اللون: إنه معمل الغاز الجديد في حرض، الذي من المتوقع أن يتم إنجازه خلال أسابيع قليلة من تاريخ صدور هذا العدد، وتحديداً في شهر يونيو، على أن يدخل مرحلة الإنتاج في الشهر التالي.

هذا المعمل هو ثالث المشاريع الصناعية الكبرى التي ارتفعت في الصحارى السعودية خلال السنوات الأخيرة. فقبله كان هناك معمل الغاز في الحوية الذي بدأ بالإنتاج في ديسمبر 2001م وسمي آنذاك «مشروع العام 2001م» من قبل معهد إدارة المشاريع في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو مخصص لمعالجة 1.6 بليون قدم مكعبة من الغاز غير المصاحب يومياً. وقبل الحوية، كان هناك مشروع حقل الشيبة لتجميع ومعالجة ونقل 500,000 برميل يومياً من الزيت الخام الخفيف من أعماق الربع الخالي إلى المرافق الصناعية القائمة في بقيق.



أما مشروع الساعة في حرض فيهدف إلى إنشاء معمل لمعالجة 1.6 بليون قدم مكعبة من الغاز الذي يرده من 87 بئراً مجاورة.

تمر السيارة أولاً بالقرب من حي سكني ارتفعت فيه عشرات المباني التي وصل العمل فيها إلى مراحل التشطيبات الأخيرة، وعلمنا لاحقاً أن هذه المباني تتسع لإقامة ألف شخص، وبجوارها تتوافر كل احتياجات سكان هذه القرية مثل المسجد وأماكن التسلية المشتركة، وما

تنعم به المدن الحديثة من مرافق مثل المطار القادر على استقبال طائرات نفاثة من طراز بوينغ 737.

نلتقي هناك المهندس الشاب أحمد العارض، الذي يصطحبنا في سيارته بجولة على أقسام المعمل، الذي راحت صورته تكبر وتكبر كلما اقتربنا منه.

ولكي يُكوّن القارئ فكرة عامة عن أحجام هذه المشاريع ومقاساتها، يمكنه أن يتخيل نفسه وقد انتزع محرك سيارته، وبعد أن طلاه بأسره باللون الفضي وضعه أرضاً وترك نحو ألف نملة تتسلق أجزاءه المختلفة وتتغلغل داخله.. هكذا تبدو مقاسات معمل حرض مقارنة بالعمال المنتشرين في أرجائه وزواياه.

قلنا ألف نملة.. كان يجب أن نقول تسعة آلاف، لأن هذا هو عدد العاملين الذين كانوا هناك عند زيارتنا للمشروع، بعد أن كان قد وصل سابقاً إلى عشرة آلاف وستمائة رجل!! ومع ذلك، يندر أن يرى المرء أكثر من عشرة إلى عشرين شخصاً في المكان الواحد، ولكنه أينما تجول وجد أناساً منتشرين: هنا خمسة، وهناك عشرة تحت ذلك الأنبوب، وهناك ثلاثة فوق ممر علوي.. كلهم يعتمرون الخوذات الواقية، ومعظمهم يغطي عينيه بنظارات صفراء كبيرة ويلف منديلاً عريضاً أسفل وجهه اتقاءً للغبار، فاختفت ملامحهم الشخصية وكأن سيادة قوانين السلامة الموحدّة، توحّد الجميع حتى في الشكل، ووسط الضجيج وصخب الآلات نسمع في (برج بابل) هذا خليطاً فريداً من اللهجات العربية: السعودية والمصرية واللبنانية، وعدداً من اللغات التي تتراوح بين الإنجليزية والأوردو.. وعرفنا من مضيفنا أن العاملين في هذا المشروع ينتمون إلى ست وثلاثين جنسية مختلفة. وإمعاناً في إثارة المزيد من دهشتنا نسمع أن خليط الجنسيات في ورشة معمل الحوية وصل في فترة الذروة إلى خمسين جنسية مختلفة.

الأرقام الخاصة بهذا المشروع تبدأ مدهشة وتنتهي مشفوعة بصعوبة التخيّل. فقد تطلب إنشاء هذا المعمل من جملة ما تطلبه نحو 100000 متر مكعب من الخرسانة المسلحة، و 22000 طن من الهياكل الفولاذية و 410000 وصلة لحام، و 540 كيلومتراً من الأنابيب و 1400 قطعة مصممة هندسياً و 750 كيلومتراً من خطوط الأنابيب.

نمرُّ بالقرب من معدات أسطوانية عملاقة مثبتة عالياً عن الأرض، يقول مضيفنا إنها أبراج تنقية الغاز من الشوائب. ويصل وزن بعضها إلى ثمانمائة طن، وكيف وصلت إلى هناك؟ حُمّلت من ميناء الجبيل على شاحنة تسير بنحو ستين عجلة، ولا تستطيع تجاوز سرعة الخمسة كيلومترات في الساعة نظراً لثقلها، ولذلك تطلبت رحلتها إلى حرض عدة أيام بدلاً من الساعات الأربع اللازمة للسيارة، ولرفع هذه الأبراج عن الأرض وتثبيتها في مكانها، احتاج الأمر إلى رافعة هي واحدة من تسعة نماذج موجودة في العالم.. فتم استئجارها من إحدى الدول العربية، وتم تفكيكها ونقلها بواسطة ستين شاحنة إلى موقع العمل حيث أُعيد تركيبها لتؤدي مهمتها...

الأسماء.. قبل النفط والغاز

في البحث عن تاريخ مواقع هذه المشاريع وجغرافيتها وافانا الأستاذ عبدالخالق الجنبي بالآتي:

حرض

حَرَضْ قرية في محافظة الأحساء. وجاء في المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: «حَرَض: بفتح الحاء والراء وآخره ضاد معجمة، قال الأزهري في كتاب «التهذيب»: وحرض ماء معروف في البادية، ومن المرجح أن حرض هذه هي التي عناها امرؤ القيس في بيت من الشعر ذكره الحموي في كتابه معجم البلدان، جاء فيه:

وقـد أقـود بـأقـراب إلـى حـرض
إلـى جـماهـير رحـب الـجـوف صـهّـالا

وجاء في المعجم أيضاً أن حرض من الموارد القديمة لقبيلة آل مرة، تشرب من آبار ارتوازية، وعدد سكانها اليوم نحو 1300 نسمة.

الحَويَّة

أرضٍ تقع جنوب الغوار، بالقرب من فضيلة بين جودخان غرباً وبرقاء الضمران شرقاً، وشمال الركن الشمالي الغربي من حرض، كان فيها سابقاً منهل ماء يدعى الحوية، يمر به الطريق من العضيلية إلى حرض، وفيها جبل يحمل اسمها أيضاً.

الشِيبَة

هي عبارة عن عروق من الرمال تتخلل سبخة الكِدَن، وتقع الشِيبَة في أقصى الجنوب الشرقي للمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، وإلى الجنوب منها يقع موضع الرملة، كما يحدها من الغرب والشمال الغربي سهول الظفرة، وتدخل الشيبة في عداد نواحي الربع الخالي. وتمتاز الشيبة، كسهول الظفرة والكدن، بوفرة المراعي فيها بعد هطول الأمطار، غير أن هذه المراعي بعيدة نسبياً عن موقع الحقل النفطي الشهير.

والواقع أن التحديات التي تقف أمام القائمين على هذه المشاريع أكثر من أن تحصى. وما المواقع الجغرافية لهذه المعامل الكبرى إلا بعضها.

فإذا كان معملا الحوية وحرض محظوظين في وقوعهما على مقربة من طريق معبد كان موجوداً سلفاً، فإن حقل الشيبة يقع في عمق صحراء الربع الخالي على بعد 385 كيلومتراً من أقرب طريق معبد، ونحو 500 كيلومتراً من أقرب بلدة مأهولة، الأمر الذي استدعى شق طريق خاص إليه في واحدة من أولى الخطوات التنفيذية للمشروع.

غير أن الأمثلة التي سقناها حتى الآن، والتي تدور كلها في الفلك الفني، تؤدي بنا مجتمعة إلى السؤال حول التحدي الكبير المتمثل في إدارة مشاريع بهذه الضخامة، فمن هو قائد الأوركسترا الذي يضبط أداء عشرة آلاف رجل موزعين على عشرة مقاولين رئيسيين وعدد أكبر من مقاولي الباطن؟ ويؤمن تكامل عمل كل فريق مع أعمال غيره من الفرق؟

مع قائد الأوركسترا

نلتقي بحثاً عن أجوبة لأسئلتنا بثلاثة مهندسين من أرامكو السعودية، فالشركة هي صاحبة هذه المشاريع، وهي أيضاً التي تتولى إدارتها، أو هي، إذا شئت، قائد الأوركسترا.

المهندسون الثلاثة هم سعد فهد الدوسري، مدير عام إدارة المشاريع في المنطقة الشمالية من مناطق أعمال الشركة، وسالم شاهين، مدير إدارة مشروع حرض، ومحمد الحمّاد الذي عمل سابقاً في مشروع حقل الشيبة ومن ثم في معمل الحوية.

وعلى الرغم من أن هؤلاء المهندسين الثلاثة يشغلون مهمات ومناصب مختلفة، وأن كلاً منهم أجاب عن أسئلة خاصة به، فلا بد وأن يلحظ المرء أنهم متشابهون في أمر عميق مشترك في ما بينهم. نظرات حادة، وآذان تصغي لكل حرف، وأجوبة سريعة ومباشرة، وكأن الموضوع بديهي أو تحصيل حاصل.

عندما استقبلنا الدوسري لم يستغرق الأمر أكثر من ثوانٍ قليلة ما بين المصافحة وطرحه للسؤال وهو يجلس إلى الطاولة: «بماذا أستطيع أن أساعدكم؟» فالرجل مباشر جداً ولا وقت لديه للهدر. ومع ذلك فقد أعطانا أكثر من أربعين دقيقة شرح لنا فيها مسيرة أي مشروع تتولاه إدارته المسؤولة عن المشاريع التي تزيد قيمتها عن المليوني دولار وصولاً إلى البليوني دولار وأكثر..

ملخص هذه المسيرة في مراحلها الأولية يقول إنه عندما تتبين الحاجة إلى بناء معمل جديد، يبدأ العمل بوضع تصميم أولي للمعمل يحتوي الخطوط العامة العريضة لمواصفاته: طاقته، موقعه، نقاط اتصاله، ما يدخله وما يخرج منه، وهذا الجانب من العمل يتم تنفيذه بالكامل داخل الشركة. وفي مرحلة تالية يتم وضع «تصوّر المشروع» الذي يضم المزيد من التفاصيل، والمواصفات لمختلف أجزائه، كما تُرسم حدوده. وفي هذه المرحلة تستعين أرامكو السعودية بجهات خارجية متخصصة تقوم عادة بما يتراوح بين عشرين وثلاثين في المئة من الدراسات الهندسية، وحتى هذه المرحلة لا تكون لإدارة المشاريع موازنة، بل إن كل التمويل الذي تحصل عليه هو لسداد كلفة الدراسات فقط. ولكن نتيجة هذه الدراسات المفصلة هي التي تُعتمد كأساس لوضع تقدير لكلفة المشروع، فتُقترح موازنته على مجلس الإدارة لإقرارها.

من الآليات المستعملة رافعة تفكك وتنقل على متن ستين شاحنة ليعاد تركيبها لتنتشل 1200 طن



ويضيف المهندس سعد الدوسري قائلاً: «إن الإعداد للمشاريع الكبرى يحتم علينا إشراك إدارات وأقسام عديدة في الشركة مثل: العقود، القانون، شؤون الموظفين، منع الخسائر، الأمن، إضافة إلى الهندسة بكل أقسامها ومن أبرزها الخاص بالشؤون البيئية، وأحياناً الأجهزة الحكومية حيثما يستدعي الأمر، فلكل من هؤلاء كلمة يقولها في جانب معين من جوانب المشروع يتعلق باختصاصه».

ويتابع ممعناً في التفاصيل: «إننا نقسم المشروع إلى حصص مختلفة. فمرافق معالجة الغاز حصة، مرافق المساندة الصناعية حصة ثانية، الاتصالات حصة ثالثة، الأنابيب حصة رابعة ... الخ. وعندنا لوائح كاملة بكل الجهات القادرة على تنفيذ هذه الحصة أو تلك، فنتصل بها كلها، ونعرض عليها هذه الحصة، وننتقي من هذه الجهات المؤهلة منها، ونطلب إليها خوض مناقصة أسعار لنعتمد في النهاية الأنسب من بينها، ومن الطبيعي القول أنه كلما كان المشروع كبيراً، كلما كبر حجم اتصالاتنا. وتتضمن هذه المرحلة أيضاً وضع مزيد من التفاصيل التقنية الخاصة بتنفيذ المشروع، وعندها ينطلق العمل». ولكن هل ينتهي دور الشركة بصفتها صاحبة العمل عند حدود وضع التصور النهائي للمشروع وتمويله؟

«أبداً»، يقول الدوسري، «هناك شركات توكل إدارة مشاريعها إلى جهات مستقلة. الأمر مختلف في أرامكو السعودية.. فنحن ندير مشاريعنا بأنفسنا إلى النهاية».

التنسيق وضبط الإيقاع

منذ بدء توزيع المشروع على الورق إلى حصص منفصلة عن بعضها البعض، يصبح التنسيق ما بين هذه الحصص مسألة نجاح أو فشل للمشروع.

فهناك أولاً التنسيق على الصعيد التقني، بحيث يأتي عمل كل مقاول مكملاً بشكل صحيح لعمل مقاول آخر ويمثل امتداداً سليماً له من الناحية الفنية.

وهناك أيضاً التنسيق الدائم لترتيب الجداول الزمنية للأعمال ما بين القطاعات المختلفة. فمقاول الاتصالات على سبيل المثال موجود أينما كان على الأرض، ويجب على عمله ألا يتعارض مع أعمال الآخرين، لأن أي تعارض يعني أن على أحد الطرفين التوقف عن العمل إفساحاً في المجال للآخر.. وهذا هدر للوقت.

ولمعرفة حجم الجهود التي يتطلبها التنسيق السليم لورشة مشروع حرض مثلاً نكتفي بالإشارة إلى أن العشرة آلاف عامل يتوزعون على عشرة مقاولين كبار وعدد أكبر من مقاولي الباطن، والأهم من كل ذلك أن لا علاقات مباشرة للمقاولين بعضهم ببعض، بل إن كل العلاقات يجب أن تتم عبر إدارة المشروع. وفي هذا الصدد يقول المهندس سالم شاهين: «إن في مكتبه ثلاثة أو أربعة مجلدات ضخمة تتعلق فقط بتنسيق الأعمال. وأن ضبط التنسيق يتم من خلال اجتماعات عمل يحضرها أحياناً أربعون أو خمسون شخصاً لكل منهم مهماته وبرامجه وطلباته الخاصة..»

ويضيف شاهين: «إن إدارة المشروع لا تقتصر فقط على التنسيق الفني ووضع الجداول الزمنية. ففي مشاريع كهذه نواجه تحديات في مجالات شتى. مقاييس السلامة مثلاً تتطلب منا اهتماماً استثنائياً نظراً إلى طبيعة الأخطار من جهة، وأيضاً لأن العاملين في المشروع ينتمون إلى ست وثلاثين جنسية مختلفة. والمسألة التي نواجهها ليست مسألة لغة وترجمة فقط، بل هي أيضاً مسألة ثقافية، إذ يختلف مفهوم السلامة ما بين أبناء هذه الثقافات المختلفة وعلينا توحيده. وفي الاجتماعات الصباحية التي نعقدها يكون مسؤول السلامة حاضراً، وهو يتمتع بصلاحية انتقاد أي مسؤول أو مدير حاضر، مهما كان موقعه، إذا أخل بشروط السلامة.. هذا موضوع لا يقبل التراخي بأي شكل من الأشكال».

توفير نصف بليون دولار

كنا قد سمعنا أن مشروع حرض سينتهي قبل موعده المرتقب بنحو خمسة أشهر. ولكن المهندس شاهين فاجأنا عندما سألناه عن مجمل سير العمل، بأن إدارة المشروع تمكنت من تخفيض كلفته حوالي 25 في المئة عما كان متوقعاً في الموازنة الأولية.

25 في المئة من موازنة كانت مقدرة في البدء ببليونين ومئتي مليون دولار، أي أن التوفير الحاصل يزيد على نصف بليون دولار، أي ما يكاد يكفي لإنشاء مصنع غاز آخر.. كما أن الحمّاد عبر عن اعتزازه أيضاً بأن مشروع الحوية انتهى قبل موعده المحدد وبتكلفة أقل مما كان مقدراً، ولكننا نعرف أن الإسراع في إنجاز المشاريع يتطلب عادة تكاليف إضافية وليس العكس. فما الذي يعنيه ذلك؟ هل يمكننا القول أن أرامكو السعودية كانت في غاية السخاء والكرم عندما وضعت تصوراتها لموازنات هذه المشاريع؟

نحمل السؤال إلى سعد الدوسري الذي يجيب: «لا، هناك مشاريع تفوق كلفتها الفعلية ما كان متوقعاً لها. وهناك مشاريع تقل فيها الكلفة عن الموازنة. وعندما توفر مالاً فهذا يعود إلى أمرين: إما لأنك قمت ببعض الأعمال المبتكرة التي توفر المال، وإما لأن شروط السوق وأسعاره تبدلت في اتجاه يسمح بتخفيض التكاليف».

ويضيف: «عندما نضع موازنة مشروع معين، فإن ذلك يتم بالاستناد إلى الكلفة الإجمالية لمجمل الأعمال وحسب الأسعار المتداولة في السوق. ولكننا نقوم لاحقاً في الشركة بالعديد من الأعمال التي توفر دفع المال إلى جهات خارجية مثل التقويم الهندسي وتخطيط عملية التنفيذ والعديد من الأعمال الأخرى. ومن جهة أخرى هناك مقاولون يخفضون أسعار أعمالهم عما هو متعارف عليه في السوق رغبة منهم في إبرام عقد مع أرامكو السعودية، باعتبار أن التعامل مع الشركة سيؤكد أهليتهم في السوق ويعود عليهم لاحقاً بنفع كبير، نظراً إلى الشروط الصارمة التي نشترطها على صعيد أهلية الجهات التي نتعامل معها. وهناك أيضاً حسن تنفيذ الأعمال وعدم هدر الوقت. والواقع أنه ليس هناك سبب واحد يفسر توفير المال، بل مجموعة كبيرة من الأسباب المختلفة».

روح الفريق

عندما التقينا المهندس محمد الحمّاد حاولنا الاستفادة من تجربته الميدانية في مشروعي الشيبة والحوية فتوجهنا إليه بهذا السؤال: إذا كانت المشاريع الصغيرة والكبيرة تمر كلها عندكم بالمسارات نفسها. فمتى يبدأ الفارق ما بين الاثنين بالظهور؟ فأجاب فوراً: «عندما نبدأ بتشكيل فريق العمل». والواقع أننا لمسنا في تجوالنا ما بين الشركة ومواقع العمل أمراً غامضاً يمكن تصنيفه في باب العوامل الإنسانية أكثر مما هو من مناهج العمل الإداري الصارمة في توزيع الحصص والمسؤوليات. فقد لاحظنا أينما كنّا أن الحديث عن «روح الفريق» يبدو غالياً على قلوب الجميع، ولم نلمس أي تواضع مصطنع عندما رأينا الكل يرد النجاحات إلى «روح الفريق» المتكامل والمتضامن، حتى أننا صادفنا في حرض أحد الزملاء الصحافيين يجمع حكايات العاملين هناك عن تضامنهم وتعاونهم وروح الفريق التي تسودهم لكتابة مقالة خاصة بهذا الجانب.

يقول الحمّاد: إن «الفريق» يضم كل العاملين في المشروع، ليس من أرامكو السعودية والمقاولين فقط، بل أيضاً حتى المقاولين من الباطن. والتأكد من توفر مناخ التعاون التام شرط أساسي للانطلاق في العمل، ويضرب مثلاً على ذلك أن أحد كبار المقاولين الذين عملوا في مشروع الحوية كان صاحب تجربة سابقة مع أرامكو السعودية، ولم تكن تلك التجربة مثالية للطرفين، «فسعينا إلى تبديد الغيوم وإزالة

أصبح الاهتمام بإشراك الشباب السعودي جزءاً أساسياً من نسيج تنفيذ هذه المشاريع





خلال المراحل المختلفة من تنفيذ المشروع، يتم تطبيق مجموعة عناصر وأعمال تطويرية مهمة عليه من فريق العمل، أخذاً في الاعتبار جدول التنفيذ والتكلفة والجودة والسلامة في كافة أعمال المشروع. وتشمل هذه العناصر والأعمال ما يلي: نقاط القياس، الهندسة القيمية، ورشة التخطيط والتنفيذ في المشروع، ورشة مراقبة وتحسين الجدول الزمني، تطبيق الدروس السابقة المستفادة، تجميع الدروس الآنية، التخطيط لبدء التشغيل، مراقبة وإدارة تغيرات المشروع.

أي سوء فهم قبل الانطلاق في العمل معه. الأمر نفسه ينطبق على المقاولين من الباطن الذين نزورهم للتأكد من قدرتهم على الاندماج في الفريق والتعاون على المستوى المطلوب». وفي حرض، حصل بالفعل أن قام مقاولون بإعارة بعض الأيدي العاملة إلى مقاولين آخرين دعماً لهم، وهذا أمر يندر حدوثه في مشاريع أخرى.

الساحة للشباب السعوديين

على صعيد آخر، تؤكد معطيات هذه المشاريع أن الاهتمام بمشاركة المؤسسات المحلية صار جزءاً أساسياً من نسيج تنفيذها. ففي مشروع حرض بلغ حجم هذه المشاركة نحو 681 مليون دولار توزعت على الشكل الآتي: 25 مليون دولار للأعمال الهندسية داخل المملكة و 340 مليون دولار للإنشاء من قبل المقاولين السعوديين و 316 مليون دولار للمواد المصنعة محلياً. وقبل ذلك، وصلت نسبة الموردين والمصنعين المحليين في مشروع الحوية إلى نحو 32 في المئة.

وفي هذا المجال يقول الحماد: «إن الشركة تعتمد المورد والمصنّع السعودي حيثما كان ذلك ممكناً، ليس فقط من باب دعم الصناعة المحلية وتشجيعها، بل أيضاً لأن المورد المحلي يتمتع بمرونة أكبر على صعيد تسليم ما هو مطلوب منه، ويتكيف بسهولة مع أي تبدل يطرأ على المواعيد نظراً لقربنا منه». وإلى ذلك يضيف شاهين: «إننا نقوم هنا في حرض لأول مرة بمشاريع سعودية كاملة على صعيدي الأنابيب والبنى التحتية».



التنسيق بين حصص المشروع المنفصلة يعني نجاح المشروع أو فشله

وما هو أهم من ذلك كله، هو أنه بانتهاء إنشاء هذه المعامل الكبرى، فإن تشغيلها يعتمد على الأيدي السعودية. ويبدو أن تجربة الشيبة كانت منعطفاً مهماً في هذا المجال. فبعدما كان مألوفاً أن تضم إدارات المشاريع الضخمة ما نسبته ستين أو سبعين في المئة من الأجانب، لم يكن في الشيبة غير أجنبي واحد بين كل مدراء المشروع.

وقد تعزز هذا التوجه في الحوية. فمنذ انطلاقة المشروع بدأ توظيف الذين سيناط بهم تشغيل المعمل، وتدريبهم على أعمالهم المحددة، واليوم يُشغِّل هذا المعمل من قبل 230 موظفاً سعودياً، أكثر من سبعين في المئة منهم في العشرينات من العمر.

نجاح التجربة في الحوية دفع بمشروع حرض إلى اعتماد المنهج نفسه، فمع انطلاق العمل فيه، بدأت عملية توظيف 375 شخصاً سيحتاجهم تشغيله لاحقاً (99 في المئة منهم سعوديون). وانطلقت تبعاً لذلك مسيرة تدريبهم وتأهيلهم على تشغيل المعمل، الذي سيكون بين أيديهم هم دون غيرهم بدءاً من مطلع الصيف.

وحول الطريقة التي لجأت إليها الشركة لاعتماد هؤلاء الشبان يقول المهندس سعد الدوسري: «إن معظمهم كان يعمل في مواقع مختلفة، وتم توظيف عدد من الشباب الجدد، ولكنهم خضعوا جميعاً للتدريب على مهامهم الجديدة».

والنتيجة

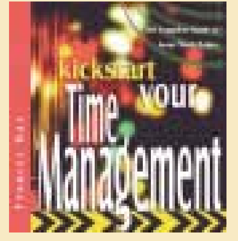
عند انطلاق مشروع معمل حرض، وضع القيّمون عليه نصب أعينهم الوصول بـ«مؤشر جودة الإنتاج» إلى 90 في المئة، غير أنهم وصلوا فعلاً منذ منتصف العام الماضي إلى 95 في المئة، وهو مستوى يصعب على أي مشروع تجاوزه.

وفي تفسير هذا المستوى من الأداء نتذكر ما كنا قد سمعناه من المهندس الحماد حينما أشار إلى أن: «كل فريق عمل يرغب في التفوق على ما أنجزه فريق مشروع آخر، فالحوية أراد أن يتفوق على الشيبة، واليوم ترى أن حرض يسعى إلى التفوق على الحوية.. والأهم هو أن فريق الحوية يساعد فريق حرض على الوصول إلى هذه النتيجة».

ولعل ما يلخص كل ذلك ببلاغة عميقة هو الثقة والهدوء اللذين لاحظناهما على المهندس سالم شاهين خلال استقباله لنا وخلال تناوله الغداء معنا، ومن الهدوء النسبي لرنين هاتفه. الثقة في حديث رجل يدير مشروعاً قيمته نحو بليوني دولار وينفذه عشرة آلاف رجل.. ألا يعني ذلك أن «دستور» الشركة التي تنفذ هذا المشروع، إذا جاز التعبير، هو الضامن الأول لحسن سير العمل، ويسمح لمدير إدارة هذا المشروع بهذا الحد من الهدوء.

صور الموضوع: أرامكو السعودية

إقرأ للإدارة



إدارة الوقت
Time Management
Farnces Kay
Capstone Publishing Ltd
Oxford, 15/4/2003

الوقت هو العنصر الوحيد الذي يرتفع ثمنه باستمرار، لأن ما نملكه منه محدود ولا يمكن زيادته أو إطالته، والطلب عليه في ازدياد، لذا، فإن أفضل طريقة لاستثمار الوقت تكمن في استغلاله بصورة أفضل.

وقد صدرت في السنوات الأخيرة عدة كتب حول ما يسمّى بـ «إدارة الوقت»، جميعها تتناول مسألة الاستغلال الفعّال للوقت، والسبل المؤدية إلى ذلك داخل العمل أو خارجه. وهذا الكتاب الصادر حديثاً تحت عنوان «أطلق إدارتك للوقت» يحفل بالاقتراحات والأفكار المفيدة والتقنيات الحديثة التي تصب جميعها في تثقيف القارئ على صعيد استغلال الوقت بحكمة وفاعلية.

يقع الكتاب في 250 صفحة، وينقسم إلى ثمانية فصول تبدأ بتعريف «إدارة الوقت»، وتنتهي بإرشادات حول أنجح الطرق للاستفادة من التقنيات الحديثة في اختزال الوقت. وبين هذا وذاك، هناك عناوين عديدة منها على سبيل المثال: ضغط العمل وكيف تخففه، العادات الجيدة والعادات السيئة، إدارة الناس من عملاء وموظفين وأصدقاء، إدارة المعلومات، وغير ذلك...

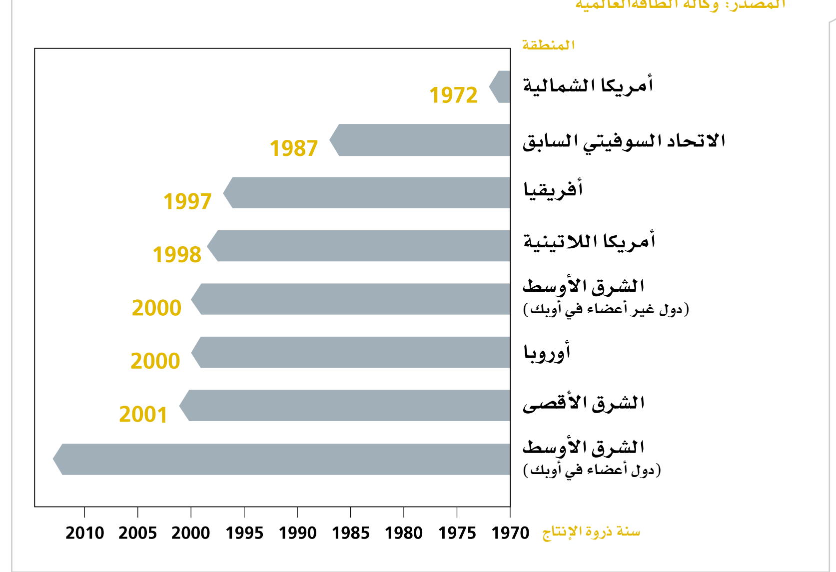
الخليج النفطي.. منطقة استراتيجية تزداد أهمية

الزيت.. الذروة والانخفاض

من المتوقع أن يكون لبلوغ إنتاج العالم من الزيت ذروته خارج دول أوبك، ثم توجهه نحو الانخفاض، تأثيراً على ازدياد أهمية إنتاج دول أوبك. لذلك فإن الشركات ومنظمات الطاقة العالمية تركز انتباهها ومجمل دراساتها على هذا الموضوع. المهندس عبدالعزيز الخويطر، المتخصص في دراسات الزيت، يقدم فيما يلي رؤية عن إنتاج الزيت في المستقبل المنظور.

لم يلعب أي مصدر من مصادر الثروة في القرن الماضي دوراً استراتيجياً يضاهي الدور الذي لعبه النفط. وبطبيعة الحال وكأي مورد استراتيجي، فإن المعلومات الخاصة باحتياطيات وإنتاج النفط المستقبلي تحاط بالكثير من الجدل حولها.

ترى شركات النفط العالمية أن ذروة إنتاج النفط خارج أوبك، ستكون مابعد 2020م، في محاولة منها لتهدئة المخاوف حول وصول الإنتاج خارج أوبك إلى ذروته، وذلك خشية تأثير ذلك على أسعار أسهم هذه الشركات، علماً أن معظم إنتاج نفطها يقع في دول غير أعضاء في أوبك. وفي رأي بعض الشركات أن مصادر النفط غير التقليدي (مثل الرمل الزيتي في كندا) من الممكن أن تقلل الاعتماد على النفط التقليدي، ولكن الحقيقة أن إنتاج الزيت غير التقليدي يقل عن مليون برميل في اليوم وذلك من إجمالي 77 مليون برميل في اليوم من الإمدادات، ولهذا فإن تأثيره سيكون محدوداً.



ونتيجة للجدل الدائر حول إنتاج الزيت المستقبلي، أخذت منظمات الطاقة العالمية مثل وزارة الطاقة الأميركية ووكالة معلومات الطاقة الدولية وشركات مثل إكسون موبيل وبريتيش بتروليوم تبدي اهتماماً متزايداً حيال هذا الموضوع.

وباستثناء بعض المختصين بصناعة النفط، فإنه من الصعوبة تقدير إمكانات الإنتاج المستقبلية للشركات النفطية العالمية. لقد عملت شركات ومنظمات صناعة الزيت على تركيز الاهتمام على الكميات الباقية من احتياطيات الزيت وإغفال القضية الأهم وهي معدلات إنتاج الزيت، وهذه هي النقطة الأساسية نظراً إلى اعتماد العالم على وفرة الزيت الذي يُؤمّن 95% من جميع أنواع الوقود المستخدم في النقل.

وما يحاول المحللون المستقلون إبرازه هو وجوب تركيز انتباهنا على التاريخ الذي يبدأ إنتاج النفط فيه بالتناقص وليس متى سيتم إنتاج آخر قطرة من الزيت. ويبني خبراء متخصصون في النفط

مثل كامبل ولاهيرير ودنكان وديفيز توقعاتهم بقرب بلوغ ذروة إنتاج النفط على ملاحظاتهم بأن أعلى مستوى إنتاج يتزامن مع متوسط استنزاف المورد المعني، وهذا يعني في حالة النفط أننا عند الوصول إلى ذروة الإنتاج نكون قد استهلكنا نصف كميات الزيت القابلة للاستخراج في العالم.

وأكثر النماذج المستخدمة في تقدير إنتاج وإمدادات الزيت شهرة في مجال صناعة النفط هو النموذج الذي وضعه كينج هيوبرت عام 1956م والذي تمكّن من خلاله من توقّع ذروة إنتاج الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1970م، وذلك استناداً إلى الافتراض بأن كميات الزيت القابلة للاستخراج تبلغ 200 بليون برميل. ويطبق بعض المحللين الآن نموذج هيوبرت على نطاق عالمي في محاولة لتوقع طاقة إنتاج الزيت العالمية المستقبلية.

لقد قام محللون آخرون بدراسة مناحي اكتشافات الزيت ولاحظوا أن هذه الاكتشافات تصل دائماً إلى ذروتها أولاً، وهذا ما ينعكس بالضرورة على مستوى إنتاجه الذي يبلغ ذروته بعد ذروة الاكتشافات بمدة تتراوح ما بين 30 و50 عاماً. ويعد بحر الشمال من الأمثلة الحديثة على ذلك، حيث جاءت ذروة الإنتاج في عام 2000م بعد 28 عاماً من ذروة الاكتشاف. وقد بلغت اكتشافات الزيت في العالم ذروتها في عام 1964م، ولهذا فليس هناك مجالاً للدهشة عندما نعرف أن الإنتاج العالمي يوشك أن يبلغ هو الآخر ذروة تُناظر الذروة التي بلغتها الاكتشافات.

وبلغ الإنتاج في أوروبا، الذي تأتي نسبة 90% منه من بحر الشمال، ذروته في عام 2000م عندما وصل إلى مستوى 6.2 مليون برميل في اليوم. ومن الممكن تقويم الانخفاض المتوقع في إنتاج بحر الشمال من الزيت بصورة دقيقة، لأن حكومتي المملكة المتحدة والنرويج تصدران تقارير سنوية مفصّلة عن الاحتياطيات والإنتاج وتوقعات الإنتاج المستقبلية في كل حقل.

> الدور التاريخي الحاسم الذي لعبته أوبك، في التخفيف من الصدمات الناجمة عن تقلبات مستوى إمدادات العالم من الزيت، ستزداد أهميته مع مرور الوقت

وعلى الرغم من التوقعات الإنتاجية المتفائلة التي تضعها شركات النفط، لم يحصل أن استعادت أية منطقة منتجة للزيت مستوى إنتاجها بعد بلوغ الذروة، بل إن هبوط معدل الإنتاج يصبح أمراً حتمياً.

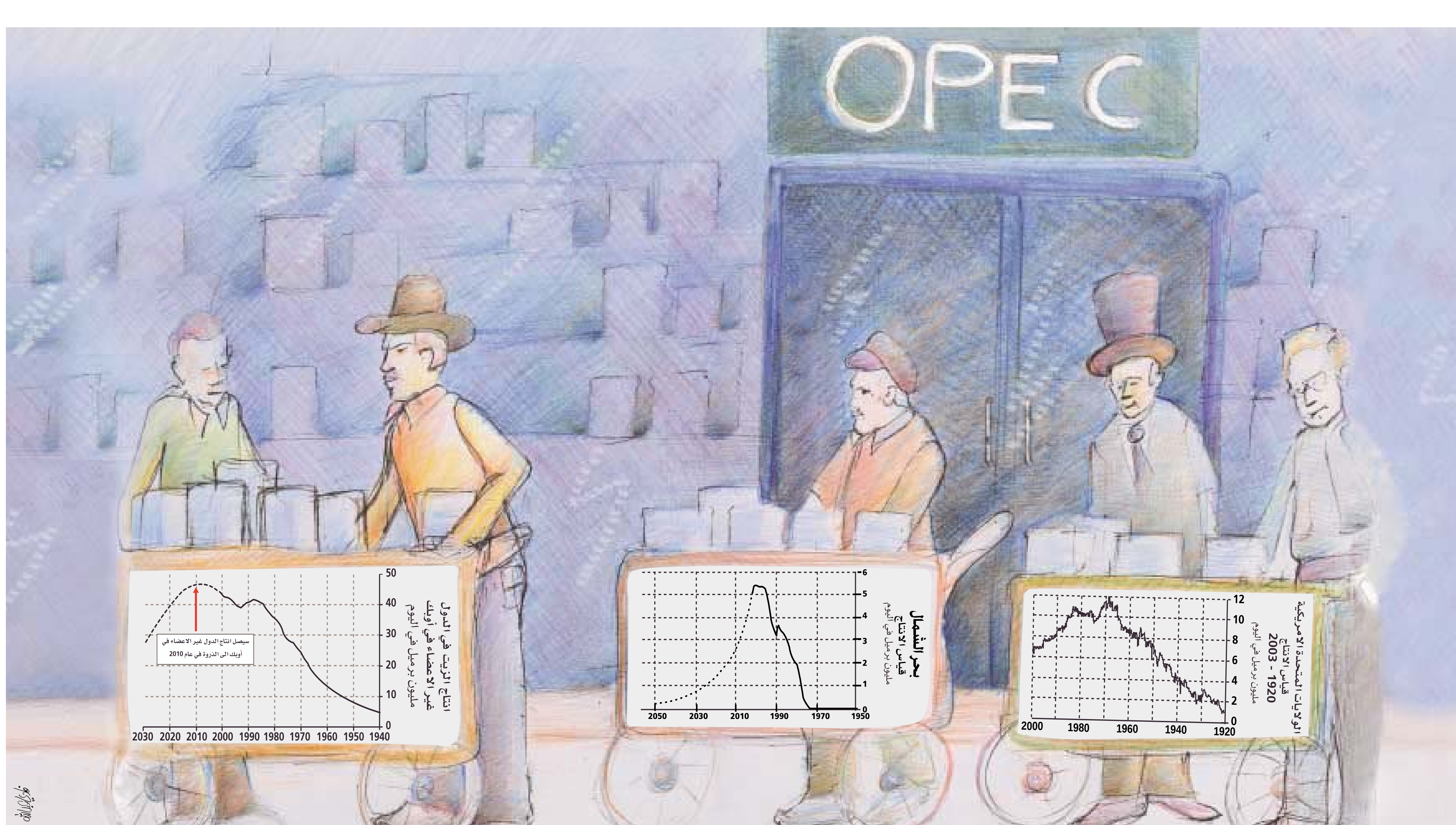
لقد وصل إنتاج الاتحاد السوفيتي السابق إلى ذروته في عام 1987م ولكنه بدأ يتناقص بعد الانهيار الاقتصادي الذي حدث فيه في الأعوام القليلة الماضية. وعلى الرغم من زيادة إنتاج دول الاتحاد السوفيتي السابق من الزيت بصورة تدريجية خلال السنوات الثلاث الماضية إلا أن معظم الخبراء لا يتوقعون أن يصل ذلك الإنتاج إلى الذروة البالغة 12.5 مليون برميل يومياً (وصل الإنتاج في عام 2002م إلى 9.4 مليون برميل يومياً).

وإذا تتبعنا الرسم البياني لإنتاج الزيت في الدول غير الأعضاء في أوبك سنلاحظ وصول إنتاج تلك الدول في عام 1984م إلى ما يقرب من 42 مليون برميل في اليوم، وأن هذا الإنتاج لم يزد إلا بمقدار ثلاثة ملايين برميل في اليوم خلال الثمانية عشر عاماً الأخيرة، في حين زاد إنتاج الدول الأعضاء في أوبك خلال الفترة الزمنية نفسها بمقدار 13 مليون برميل في اليوم.

ولذلك، فإن أوبك ستكون في موقف يتيح لها اكتساب أهمية أكبر في إمدادات الزيت بصورة عامة، وسيكون نشاط أوبك لاستقرار الأسعار مقتصراً على تقلبات الطلب العالمي للنفط والقدرة الإنتاجية الإضافية لدول المنظمة.

وهنا يظهر بوضوح أن الدور التاريخي الحاسم الذي لعبته أوبك في التخفيف من الصدمات الناجمة عن تقلبات مستوى إمدادات العالم من الزيت ستزداد أهميته مع مرور الوقت، وستقوم دول أوبك بتعويض كل من الطلب المتزايد والنقص في إمدادات الزيت من خارج هذه المنظمة.

ويعتقد البعض أنه بحلول عام 2010م، سيقتصر فائض الطاقة الإنتاجية في أوبك على الدول المنتجة في منطقة الشرق الأوسط. ووجود هذا الفائض الإنتاجي سيتيح لهذه الدول زيادة إنتاجها بدون أن يؤثر ذلك على أسعار النفط، وبما أنها ستكون آخر من يصل إلى ذروة الإنتاج فإنها ستبقى منطقة استراتيجية مهمة .



نتمعّن سوياً..

مسيرة التعليم العالي



لماذا تتناول القافلة موضوع التعليم العالي الذي أُشبع بحثاً وطرحاً؟ كان السؤال مطروحاً على فريق تحرير المجلة، وكانت الإجابة بعد طول نقاش، هي: أن مسيرة التعليم الجامعي في المملكة تُظلم حين تُجرَّد من منجزاتها وآثارها في البنية التنموية. وهذه المسيرة التي ابتدأت بنواة صغيرة في مكة المكرمة في العام 1369هـ (1949م)، حققت غايات وبقي لها غايات.

والقافلة تتناول الموضوع في جزأين، جزء تاريخي وآني يتلمس منعطفات هذه المسيرة وتطوراتها، كأرضية صالحة للحكم عليها، وجزء يتعلق بمخرجات التعليم العالي وعلاقتها بسوق العمل، التي تطالب بمزيد من المتعلمين، القادرين على إدارة وتشغيل وظائفها.

إذاً، إليكم الجزء الأول لننتقل منه إلى الجزء الثاني في العدد القادم، بمشاركة أقلام مرموقة مثل الدكتور عبدالله عمر نصيف، المدير الأسبق لجامعة الملك عبدالعزيز بجدة، والدكتور عبدالواحد الحميد، الأمين العام لمجلس القوى العاملة.

على الرغم من أن عمر التعليم العالي في المملكة لا يزيد على خمسة وخمسين عاماً، فإنه شكّل على امتداد سنوات التنمية المتلاحقة قاعدة لمواصلة النهوض بالإنسان والمجتمع إلى المستويات القادرة على صناعة التنمية.

وبمقارنة مختزلة بين عام 1369 وعام 1424هـ، تبدو أمامنا صورتان لا يجمع بينهما إلا الدهشة التي تبررها القراءة المتمعنة في التاريخ القريب لهذا التعليم. ففي العام 1369هـ بدأت الدولة أولى خطوات تجربة التعليم العالي من خلال إنشاء «كلية الشريعة» بمكة المكرمة، لتتولى مهام تعليمية محدودة في العلوم الشرعية.

وبعرض هذه الصورة المبكرة أمام الصورة الحالية، فإن «كلية الشريعة» لا تبدو إلا كوحدة أكاديمية واحدة ضمن تسع وحدات متكاملة، تقع كلها تحت مظلة جامعة واحدة اسمها «جامعة أم القرى». ويدرس في هذه الجامعة، أكثر من 26 ألف طالب وطالبة، ويتجاوز عدد أعضاء هيئة التدريس فيها 1230 عضواً.

وجامعة أم القرى نفسها، ليست سوى مؤسسة جامعية واحدة من بين ثماني مؤسسات مماثلة قائمة، لكل منها كيان جامعي خاص، وتتبع كلاً منها كليات ومعاهد ووحدات ومرافق متكاملة. والجامعات الثماني القائمة، بما تحتضن من

كليات ومرافق ووحدات، ليست إلا جزءاً رئيساً من منظومة متنوعة من مؤسسات التعليم العالي، تتمثل في عشرات الكليات والمعاهد العسكرية، والأمنية، والصحية، والفنية، فضلاً عن كليات البنات، وكليات المعلمين، والكليات الأهلية.. وقائمة أخرى طويلة من المؤسسات التعليمية العالية المتصلة بوزارات الدولة.

13 قسماً في كلية الطب، والكلية واحدة من 19 كلية في جامعة الملك سعود، التي بدأت بكلية واحدة للآداب

وإذا كان العام 1369هـ قد دشن مسيرة التعليم العالي، منطلقاً من نواة صغيرة، فإن العام 1424هـ، يقف شاهداً على أن تلك النواة الصغيرة قد اتسعت لتتحول المؤسسات الجامعية في البلاد، مع الوقت، إلى جسور علمية تربط المجتمع السعودي بالعالم المعاصر، وتقدم، سنوياً، آلاف الكوادر الوطنية المزوَّدة بالعلوم والتقنيات الحديثة والمهارات المعنية بالبناء والتنمية.

جامعة الملك سعود

سجل عام 1377هـ انعطافة مهمة في تاريخ التعليم الجامعي في المملكة، ففيه تأسست جامعة الملك سعود التي التحق بها 21 طالباً في كلية الآداب.. الكلية الوحيدة عند التأسيس. وبعد عام واحد أنشئت كلية العلوم. ثم أنشئت كلية التجارة (العلوم الإدارية حالياً) وكلية الصيدلة بعدها بعام.. ثم تتابع تأسيس الكليات والأقسام حتى وصلت إلى 19 كلية تشمل كل منها عدداً من الأقسام المهمة.

وعلى سبيل المثال، فإن كلية الطب، التي تأسست عام 1987هـ، تضم وحدها 13 قسماً. وتضم كلية الصيدلة 5 أقسام. وتضم كلية العلوم الطبية التطبيقية 7 أقسام. وكلية طب الأسنان تضم 4 أقسام. عدا مراكز البحوث التابعة لكل كلية، ناهيك عن بقية الكليات التي يتفرع منها عشرات الأقسام، وتتبعها مراكز بحوث ومرافق علمية مساندة.

جامعة الملك فهد للبترول والمعادن



وبدلالات الأرقام فإن طلاب جامعة الملك سعود تجاوزوا الـ 70 ألفاً من الجنسين، ويعمل في هيئة التدريس التابعة لها أكثر من 2760 عضواً. وبمتابعة التطور الكمي في أعداد الطلاب، فإن هذه الجامعة حققت قفزات طردية. ففي عام 1381هـ لم يكن يدرس فيها سوى 540 طالباً، لكن هذا الرقم وصل عام 1415هـ إلى 31116 طالباً وطالبة.. وأخيراً تجاوز السبعين ألفاً.

جامعة الملك عبدالعزيز

وفي جامعة الملك عبدالعزيز بجدة شواهد مشابهة. فقد تأسست الجامعة بجهود أهلية عام 1384هـ، وفي عام 1388هـ بدأ التدريس فيها بكلية الاقتصاد وإدارة الأعمال، وبعده بعام واحد تأسست كلية الآداب والعلوم الإنسانية بقسم اللغة الإنجليزية. كان هذان التخصصان مطلوبين بشكل مُلحّ في مرحلة تنموية مهمة قادها جلالة الملك فيصل (يرحمه الله) وشملت تطوير العديد من قطاعات الدولة، والمرافق الاقتصادية.

العلوم والهندسة وعلوم الأرض والأرصاد والبيئة وعلوم البحار من أشهر تخصصات جامعة الملك عبدالعزيز

ثم تنامت مرافق الجامعة حتى وصل عدد كلياتها إلى 11 كلية، تتركز في العلوم، والهندسة، والطب والعلوم الطبية، وعلوم الأرض، والأرصاد والبيئة. وعلوم البحار، إضافة إلى الآداب والعلوم الإنسانية. وعلى سبيل الأمثلة لا الحصر، فإن ستة أقسام فرعية تتبع كلية الاقتصاد والإدارة، وستة أقسام تتبع كلية الهندسة، و 22 قسماً يتفرع من كلية الطب والعلوم الطبية، وسبعة أقسام تتبع كلية علوم الأرض.

اتصال حيوي ما بين اقتصاد المملكة و 9 آلاف طالب في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

وللتمثيل، أيضاً، أكثر فإن أقسام كلية علوم الأرض هي: جيولوجيا الثروات المعدنية والصخور، جيولوجيا البترول والترسبات، الجيولوجيا البنائية والاستشعار، الجيوفيزياء، علوم المياه، الجيولوجيا الهندسية، والتدريب الفني.. وهكذا بقية الكليات وأقسامها..!

جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

وامتداداً لدور المؤسسات الجامعية في استشعار احتياجات التنمية والتعامل معها علمياً وتطبيقياً تظهر في الصورة العامة لمسيرة التعليم العالي جامعة الملك فهد للبترول والمعادن التي تخصصت، منذ تأسيسها عام 1383هـ، في كل ما يتعلق بالدراسات الهندسية المختلفة المتصلة بالبترول. لقد كان دورها، وما زال، حيوياً ومتصلاً بعمق اقتصاد المملكة اتصالاً علمياً. وقد عكس تأسيسها احتياج المجتمع السعودي إلى الثقافة البترولية والمعدنية العلمية، بوصفه مجتمعاً تدخل الصناعة البترولية في صميم حياته وتقدمه.

ومثلما عنيت الجامعات الأخرى بتخريج الأطباء، والمعلمين، والمهندسين، والإداريين، وغيرهم من المتخصصين في الحقول المعرفية والاجتماعية والإدارية المتنوعة، فإن جامعة الملك فهد التي تأسست أولاً تحت اسم «كلية البترول والمعادن» اهتمت بحقل أكثر دقة، في شأن من أهم الشؤون الصناعية والاقتصادية، إن لم يكن أهمها.

بدأت الجامعة بقسم العلوم الهندسية عام 1385هـ، لكنها تضم الآن ثماني كليات هي: العلوم الهندسية، الهندسة التطبيقية، العلوم، الإدارة الصناعية، تصاميم البيئة، علوم وهندسة الحاسب الآلي، برنامج السنة التحضيرية، الدراسات العليا.. عدا معهد البحوث وكليات المجتمع التابعة لها في بعض مدن البلاد. وقد بلغ عدد الطلاب المقيدين في العام الدراسي الأخير 9094 طالباً، ووصل عدد أعضاء هيئة التدريس إلى 963 عضواً، 37.2 في المئة منهم سعوديون.

ومن السهولة قياس التطورات التي تحققت في هذه الجامعات، بصفتها أمثلة، على بقية التطورات المتلاحقة في بقية جامعات المملكة من منظور احتياجات التنمية ومحاولة تلبيتها بالكوادر التي تخرجها مؤسسات التعليم العالي.

وكأمثلة، لا غير، فإن:

- جامعة الملك فيصل بدأت بـ 170 طالباً، وقفز هذا العدد اليوم إلى أكثر من 12 ألف طالب وطالبة مقابل 800 عضو في هيئة التدريس.
- والجامعة الإسلامية بدأت بـ 85 طالباً في حين يقترب عدد طلابها اليوم من 3 آلاف يعلمهم أكثر من 370 عضواً في هيئة التدريس.
- ويدرس في جامعة الملك عبدالعزيز أكثر من 2300 عضو في هيئة التدريس.
- وفي جامعة الملك سعود أكثر من 2800 عضو.
- وفي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية نحو 1750 عضواً.
- وفي جامعة أم القرى أكثر من 1260 عضواً.



وتشير هذه التطورات في زيادة أعضاء هيئات التدريس، إلى التطورات على صعيد ما تحتاجه البلاد من كوادر وما تسعى الجامعات إلى تأمينه لسد هذه الحاجات.

المرأة الجامعية

ولم تكن المرأة السعودية بعيدة عن مقاعد التعليم العالي، بل نالت حظها على نحو نستطيع أن نصفه بالجيد. وتعتبر جامعة الملك سعود أول جامعة سعودية تتخرج فيها السعوديات. كان ذلك عام 1381هـ، حين قبلت أول دفعة نسائية مكونة من أربع طالبات، ثلاث منهن في كلية الآداب، وواحدة في كلية التجارة.

> المرأة التي دخلت عام 1381هـ لأول مرة إلى جامعة الملك سعود، وصلت اليوم إلى معظم جامعات البلاد وكلياتها

تلك كانت البداية المتواضعة، لكن المرأة السعودية وصلت – اليوم – إلى أغلب جامعات البلاد، فضلاً عن كليات العلوم والآداب المنتشرة في مدن المملكة، وكليات التربية، والاقتصاد المنزلي، والخدمة الاجتماعية، والمعاهد الصحية والفنية.

وبطبيعة الحال لم يكن للتعليم العالي أن ينال حظّه من التطور المطّرد من دون التشريعات الإدارية والأكاديمية التي توفر له الرعاية المادية والقانونية والعلمية. وقد خضع أولاً إلى أنظمة «مديرية المعارف» التي تطورت إلى وزارة المعارف فيما بعد. وفي عام 1395هـ أنشئت وزارة التعليم العالي لتتولى مسؤولية النهوض به، لكن رعاية الدولة امتدت إلى تأسيس مجلس التعليم العالي والجامعات عام 1414هـ.

تحديات المستقبل

تحتفظ مؤسسات التعليم العالي في المملكة برصيد خبرة من المهم استثماره في التعاطي مع التحديات المستقبلية على النحو الذي يضمن الاستمرار في أداء رسالتها. وقد يكون التزايد السريع في الكثافة السكانية في البلاد واحداً من التحديات المقلقة، فمن بين 200 ألف خريج ثانوية هذا العام، ستضطر مؤسسات التعليم العالي إلى عدم قبول 40 ألفاً منهم، بناءً على استعداداتها التي لن تكون قادرة على استيعاب أكثر من 160 ألف طالب، حسب تصريح وكيل وزارة التعليم العالي للشئون التعليمية د. خالد السلطان. (جريدة الوطن: 2002/11/28).

ومن المفيد أن تمضي الوزارة في إنشاء «كليات المجتمع» بصورة أوسع من الوضع الحالي الذي اتبعته منذ ما يقارب الخمس سنوات، فثلاث عشرة كلية من هذا النوع قد لا تكون كافية. و«كليات المجتمع» تجربة عالمية أثبتت نجاحها في وضع حلول لمعضلات كثيرة من بينها البطالة.

وإلى جانب هذا التوسع في هذا النوع من التعليم تبدو عملية التوسع شديدة الإلحاح، أيضاً، في قطاع التعليم الجامعي الأهلي، بحيث لا يقتصر على المعاهد والكليات الحالية.

وقد أحسنت الدولة تنظيماً حين ربطت القبول في الجامعات في ضوء احتياجات سوق العمل، وبالتحديد احتياجات القطاع الخاص الذي ما تزال مشاركته دون مستوى الطموح في ميدان العمل ومشاريع السعودة. ومن المثير للغرابة وجود تخصصات في كليات البنات مثلاً، لا يتحمس سوق العمل للتعامل معها بالشكل الذي يعادل أعداد الخريجات. وعلى سبيل المثال فإن خريجات اللغة العربية أو المتخصصات في النبات أو الحيوان يواجهن مشكلة عدم القبول في سلك التعليم لأنهن لسن تربويات..!

وتشكل التخصصات الطبية واحدة من معضلات التعليم الجامعي وسوق العمل في وقت واحد. إذ لا يزال القطاع الطبي، العام والخاص، بحاجة إلى الكوادر الوطنية الطبية. الأمر الذي يعني أن احتياج الدولة إلى الأطباء الوافدين سيمتد لعقود طويلة. وواقع الأمر أن إعداد هذه النوعية من الخريجين يتطلب تكاليف باهظة جداً قياساً بغيرهم من الطلاب، إلا أن التحدي يكمن في مواجهة هذا المطلب الجامعي المُلِحّ.

تجارب متفردة

كلية علوم البحار

فريدة من نوعها في الشرق الأوسط. تأسست أولاً كقسم من أقسام كلية العلوم في جامعة الملك عبد العزيز في جدة، ثم أصبحت منذ العام 1401هـ كلية مستقلة بذاتها.

تضم حاليا أربعة أقسام علمية هي: علوم البحار البيولوجية، علوم البحار الفيزيائية، علوم البحار الكيميائية، علوم البحار الجيولوجية.

يتلقى طلاب هذه الكلية تدريباً جيداً على إدارة المصائد البحرية إلى جانب الدراسة الأكاديمية التي تؤهلهم للعناية بالبيئة البحرية، وتحديد الأهمية الاقتصادية للبحر، وسبل الاستفادة منها واستغلالها على امتداد 1500 ميل من شواطئ المملكة على البحر الأحمر والخليج العربي.

ويتدرب طلاب الكلية على الغوص لجمع العيّنات البحرية، والاستزراع المائي وتوليد الطاقة. كما تعدّ الكلية الكوادر البشرية المتخصصة في مكافحة التلوث البحري.

وتتنوع مجالات عمل خريجي الكلية، فمنهم من يعمل كإخصائي في وزارة الزراعة والمياه أو وزارة البترول والثروة المعدنية، ومنهم من يعمل في مجال حماية الحياة الفطرية. كما يجد الكثيرون أماكن شاغرة بانتظارهم في المؤسسة العامة للموانئ والشركات التي تعمل في مجال الخدمات البحرية، إضافة إلى عدد آخر يتجه إلى التدريس من خلال وزارة المعارف، أو العمل في المؤسسةالعامة لتحلية المياه المالحة وهيئة المواصفات والمقاييس ومراكز الأبحاث العلمية في الجامعات السعودية.

وللكلية مشاركات وإسهامات استفاد منها عدد من الشركات والمنظمات. ومن ضمن الذين استفادوا من بحوثها على المستوى الوطني هناك مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية، والهيئة الإقليمية لحماية البحرالأحمر وخليج عدن، وأرامكو السعودية، والشركة السعودية للأسماك، والهيئة الإقليمية لحوض البحر الأحمر التي تستفيد من دراسات الكلية وتستعين بخريجيها.











قسم الآثار والمتاحف

التركات الحضارية في أيدي الخريجين..
ورثت المملكة العربية السعودية تركة حضارية عميقة الجذور في قلب جزيرة العرب، فموقعها الجغرافي الفريد شهد حضارات إنسانية سحيقة تعود إلى ماقبل التاريخ. وتؤكد الآثار والشواهد التاريخية المترامية في مواقع الجزيرة هذه الحقائق.

ويهتم قسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب، التابعة لجامعة الملك سعود، بهذا الجانب ويُخرّج سنوياً عشرات الطلاب المتخصصين في الآثار والمتاحف لتلبية الحاجة إلى التعامل العلمي مع هذه التركة الحضارية الغنية التي تحتضنها البلاد.

تأسس هذا القسم عام 1389هـ ويُعنى علمياً بعدد من التخصصات، من بينها: الآثار القديمة والكلاسيكية، والآثار الإسلامية، والجزيرة العربية فيما قبل التاريخ، والممالك العربية، والعصور الإسلامية، والكتابات الإسلامية القديمة.

وعلى ضوء التوجّهات الجادّة التي تقودها الدولة في شأن السياحة الداخلية، وأهمية المواقع الأثرية في تنوع صناعة السياحة، فإن من المنتظر من المؤسسات الجامعية، وعلى الأخص من جامعة الملك سعود، أن تضاعف جهودها البحثية على نحو معين بهدف الكشف بصورة أكثر عن الكنوز الأثرية التي تحتضنها الأرض السعودية.

ويعزز هذه الحاجة توفر المتاحف السعودية في عدد من مناطق البلاد، وهذه بدورها ستُفعِّل صناعة السياحة من جهة والنهوض بصورة التركة الحضارية إلى مستوى الفعل، كما يحدث في بعض الدول العربية التي ورثت حضارات بائدة في صور من أطلال وآثار خالدة.



هندسة البترول تخرّج منقبّي المستقبل

هندسة البترول هي إحدى التطبيقات العلمية للعلوم الأساسية في الكيمياء والجيولوجيا والفيزياء والعلوم الهندسية الأخرى. وأهم دور يؤديه مهندس البترول، هو الإشراف على حفر آبار النفط وتجهيزها بكافة المستلزمات عند العثور على الزيت الخام أو الغاز.

ومنذ تأسيسها اعتنت جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بتخريج الكوادرالسعودية المتخصصة في هذا الحقل الهندسي الحيوي من خلال قسم هندسة البترول. وبعد أن كان هذا القسم واحداً من أقسام «كلية البترول والمعادن» الرئيسة، صار قسماً من «كلية العلوم الهندسية» التابعة للجامعة.

وفي العام الدراسي 1422/1421هـ تخرجٍ من هذا القسم تسعة عشر طالباً، من أصل 365 خريجاً من كلية العلوم الهندسية. ومن التسعة عشر طالباً هناك ثلاثة طلاب بدرجة الماجستير والباقي بدرجة البكالوريوس. وفي العام نفسه شارك اثنا عشر عضواً من القسم في خمسة مؤتمرات علمية دولية، وأقاموا سبع دورات علمية، وست محاضرات متخصصة.

وبين عامي 1415 و1420هـ خرّج القسم خمسة عشر طالباً في الدراسات العليا، منهم خريجان بدرجة الدكتوراه. ويعكس هذا القسم الأهمية العلمية لدور الجامعة في هذا الحقل الهندسي الذي يحصل خريجوه على فرص عمل متميزة.

قول في مقال

العبقرية العربية



ملف جميل وقيّم و.. محرج

الفرنسيون يجوبون عالمنا الفسيح

حمل إلينا البريد الوارد من باريس ملفاً خاصاً أصدرته مجلة «العلم والحياة» الفرنسية وعلى غلافه عنوان بالخط الرفيع يقول: «عالم ألف ليلة وليلة.. تحقيق في عصر ذهبي»، وبالخط العريض: «العبقرية العربية».

بتقليب صفحات هذا الملف تَملّكنا شعور بالغبطة رغبنا في نقله إلى قرّاء القافلة. ولكن كيف؟ وهنا اختلطت الغبطة بالارتباك، أو قل بشعور أفسدها علينا.

ولنبدأ بالجانب الجميل من الموضوع.

في الافتتاحية إشارة واضحة إلى أن الاهتمام في هذا الملف تركّز على العصر العباسي ودعوة إلى «اكتشاف معالم الرقي في ذلك العصر الذهبي».

وبعد مقالة أولى حول زمن الخلفاء الراشدين، رضوان الله عليهم، ومن ثم خريطة جغرافية للوطن العربي في زمن العباسيين أُرفقت بجدول زمني مختصر حول أهم الأحداث التاريخية بين القرنين السابع والثالث عشر الميلاديين، طالعتنا أول مقالة مُوسّعة حول «ألف ليلة وليلة» بعنوان «شهرزاد: استراتيجية المسلسل»، ومن ثَمَّ تكرّ سبحة الدراسات والمقالات العلمية. وتضم هذه السبحة ثماني عشرة مقالة تتوزع على خمسة فصول رئيسة هي: العمران المدني، العلوم، التجارة، الطب وعالم الخيال.

طبعاً يمكن للقارئ الذي يُركّز نظره على النصف الفارغ من كوب الماء أن يتحفظ على بعض ما ورد في هذا الملف، فالافتتاحية تتضمن كلاماً قابلاً للنقاش، كما أن الطابعَ الاستشراقي - شكلاً على الأقل - يظهر واضحاً في عدة صفحات، إذ يبدو أن الأوروبيين لا يزالون حتى اليوم أسرى السحر الذي تمارسه عليهم رواية «ألف ليلة وليلة» فنرى مقاطع أدبية من هذه الرواية تتصدر على صعيد إخراج المقالات والأبحاث العلمية حول مختلف الموضوعات. وكأن كاتب البحث اتخذ فقرة ما من ألف ليلة وليلة منطلقاً أو ذريعة للقيام ببحثه، ولكن لا يمكن للقارئ في النهاية إلا أن يتسامح مع هذه النقاط الصغيرة أمام عمل كبير يستحق الاحترام لرصانته، ولما تَطلّبه إنجازه من جهود على صعيدي البحث والإخراج الفني اللائق، ولصدقه في الاعتراف العلني وبصوت عالٍ بـ«عبقرية عربية» مفترى عليها إعلامياً وثقافياً.

وعلى سبيل المثال، نشير إلى أن القسم الخاص بـ«العمران المدني» يتضمن ثماني مقالات تتراوح مواضيعها ما بين إعادة تصور بغداد عندما بناها المنصور ورسمِها كما كانت، ودراسة قواعد السلوك الاجتماعي في الحياة المدنية، مروراً بالسمات المعمارية البارزة للمدن العربية في ذلك العصر.

بعض هذه المقالات كان عامّاً ومختصراً. خمس صفحات فقط للحديث عن المساجد والمآذن والقباب.. كأن الأمر واجب لا مفرّ منه في الحديث عن الحضارة العربية الإسلامية. قد يكون هذا التحليل صحيحاً، ولكن دقة النص وجمال الإخراج والرسوم التي أُعِدّت خصيصاً لهذا الملف، وحسن اختيار الصور، يجعل هذه الصفحات ذات بلاغة تكاد تغني عن قراءة كتاب حول الموضوع.

وفي المقابل هناك مواضيع مدهشة لخوضها في التفاصيل التي ما كانت لتأتي لولا البحث الطويل والمضني. ومنها ست صفحات لدراسة استهلاك دمشق للماء وسياسة المدينة في تعاملها التاريخي مع نهر بردى الذي يخترقها. ولم يقتصر تزيين المقال على الصور الفوتوغرافية والرسوم، بل تضمن أيضاً خريطة للمدينة القديمة وموقعها بالنسبة إلى النهر وفروعه.

وفي القسم الخاص بالتجارة عند العرب نجد أيضاً إضافةً إلى الخرائط التوضيحية لتحرك البضائع والسلع تصديراً واستيراداً، مقالةً تتناول صناعة الزوارق البحرية التقليدية عند العرب. وفي متن هذه المقالة دفاع صريح عن جودتها ضد ما روّجه سابقاً بعض البحارة الغربيين من أمثال ماركو بولو، ولدعم هذا الدفاع اعتمد كاتب المقالة على دراسة مفصلة لنمط الزورق العربي التقليدي وطريقة صنعه، وأيضاً على تجربة عملية جرت قبل عقدين من الزمن، تمكن خلالها زورق مبني على النمط التقليدي «كذلك الذي أبحر عليه سندباد في القرن الثامن الميلادي»، من الإبحار بنجاح ما بين عُمان وكانتون.

وإذا كانت المقالات التي تناولت مواضيع العلوم والطب قد جاءت بطابع أكاديمي مبسط إلى حد ما، كما هو متوقع، فإن الملف يفاجئنا «بسبق صحفي» بالمعنى الحرفي للكلمة، إذ تمكنت مندوبة المجلة إلى دمشق من دخول قلعة المدينة المقفلة منذ عقودٍ طويلة، حيث تقوم فيها ورشة ترميم وحفريات أثرية (يتوقع أن تنتهي العام الجاري)، ونشرت على صفحتين رسماً فنياً دقيقاً يظهر مختلف أقسام القلعة بأبراجها وممراتها وأقسامها الداخلية دفعة واحدة، وهو ما نراه للمرة الأولى.

عندما قرّرنا أن نضع قارئ القافلة في أجواء هذا الملف خطرت في البال أولاً فكرة كتابة مقال حوله من صفحة أو اثنتين. وبالتمعن في محتوياته بدقة أكبر، ارتأينا أنه يستأهل أكثر من ذلك. ففكرنا في ترجمة بعض محتوياته.. وربما كلها. وهنا ارتسم في ذهننا سؤال محرج أفسد علينا استمتاعنا بهذا الملف.

أليس أمراً محرجاً أن يقوم عرب بترجمة ملف يتحدث عن عظمة العبقرية العربية من لغة أجنبية إلى لغة ورثة هذه الحضارة؟ بعبارة أخرى، أليس من المفترض أن نكون على علم ودراية مسبقة بكل ما في هذا الملف من معلومات نجهل قسماً كبيراً منها؟ وإذا كان فيه من جديد - وفيه حقاً جديد كثير - أليس من المفروض أن نكون السابقين في الوصول إليه؟

وتجرّ الأسئلة بعضها بعضاً.
ما الذي ينقصنا لإنجاز مثل هذا الملف أو ما هو أفضل منه؟

المصادر التي اعتمدها الملف متوفرة للجميع، وهي أقرب إلينا منها إلى الفرنسيين، لأنها كتبت أصلاً بلغتنا وليس بلغتهم. المال اللازم والطباعة الراقية متوفران أيضاً.

ما ينقصنا في صحافتنا العربية هو الرسام - رغم كثرتهم - الذي يدرس نصاً تاريخياً حول مدينة بغداد كما كانت عندما بناها المنصور، ليجلس ويرسمها كما كانت آنذاك، بالتعاون مع مؤرخ أو مجموعة مؤرخين، أي العمل ضمن فريق.

ما ينقصنا هو الإصرار.. الإصرار على دخول قلعة دمشق وانتزاع رسم يمثلها مهما تطلب ذلك من جهد ووقت. والإصرار يتطلب وعياً لهذه المهمة وحماساً لإتمامها.. فهل هذا متوفر عندنا؟

يقولون إن أهل البيت أدرى بما فيه. فما الذي حل بنا حتى صرنا آخر من يعلم؟

إن نظرة خاطفة على الطريقة التي تعاملنا بها مع تراثنا الحضاري، منذ بداية عصر النهضة وحتى اليوم، تؤكد لنا أن هذا التعامل - في شقه الإعلامي على الأقل - اتسم في معظم الأحيان بطابع دفاعي في مواجهة الذين حاولوا طمس هذا التراث أو التقليل من أهميته لدوافع مختلفة. وانعكس هذا الطابع الدفاعي انفعالاً ونقاشاً متوتراً أوقفنا عند مستويات المواضيع العامة والأفكار المبدئية. وهذا ما حال دون انصرافنا بهدوء وثقة إلى الغوص في تفاصيل هذا التراث، ودراسته علمياً، في أدق تفاصيله، كما هو حاصل في مواضع كثيرة من هذا الملف الجميل والقيِّم و.. الفاضح لقدراتنا العربية.

ع.ع.

ملفات مجلة «سيانس ايه في»، العدد الواحد والسبعون، 98 صفحة، باريس.

توجد الصحارى في بلاد كثيرة، غير أن للصحراء في المملكة وضعاً مختلفاً.. إنها تحتل حيزاً هائلاً مستقلاً، تشاطرنا بلدنا وتشاركنا فيه كتفاً بكتف. أثَّرت فينا وفي تكويننا وتفكيرنا وخيالنا أكثر مما أثرنا فيها.. ومن ذا الذي يستطيع فعل الكثير مع مثل هذه البحار من الرمال الممتدة إلى ما لا نهاية.. اليوم تحتاج الصحراء منّا إلى التفاتة جديدة بمفهوم جديد. الزميل **حبيب محمود** من فريق القافلة، يحاول في هذا الموضوع أن يستبطن علاقتنا ببيئة الصحراء وعلاقتها بنا.

الصحراء.. شريكتنا في بلدنا

نُعزز خيراتها .. نَدرأ أخطارها

نجح الإنسان على امتداد تاريخه في ترويض الصحارى واستخلاص احتياجاته من أشد أحوالها شحاً وجفافاً. اضطُرَّ إلى أن يكون واقعياً في أخطر أشكال الواقعية وأقساها، وحالماً في ألذّ حالات الشاعرية خيالية. وتجاوز أزمات رمالها الجافة وصخورها الجرداء مسّلحاً بغريزة حب البقاء.

لكن العلاقة المعقدة ما بين الإنسان والصحراء انعطفت في الحضارة الحديثة إلى نوع من الاعتداء يهدد جذور الحياة فيها، تلك الجذور ذات الصلة بحياة البشر أنى كانت سكناهم وحضارتهم.

تستحوذ الصحارى على خُمس مساحة العالم. ولنا – نحن العرب – نصيب وافر من هذا الخُمس القاسي، فالصحراء الكبرى الممتدة من أقصى غرب القارة الأفريقية إلى تخوم أقصاها الشرقي، هي أكبر صحارى العالم على الإطلاق، وتصل مساحتها الشاسعة إلى 8 ملايين و 400 ألف كيلومتر مربع، وتدخل في حدودها الهائلة أجزاء عريضة من مساحات خمس دول عربية على الأقل.

ثم هناك الصحراء العربية، ثالث أكبر صحراء في العالم مساحة، وهي تحتل مليوناً و 300 ألف كيلومتر مربع. وتتوزع على ثلاثة بحار رملية، هي: الربع الخالي والنفوذ والدهناء.

أحب الإنسان العربي صحراءه على ما هي عليه من قسوة، ورعب، وشح، وجفاء. وتكيّف معها محاولاً مساواة نفسه بأي كائن حي آخر يعيش فيها. وقادته الدوافع الغريزية إلى البحث عن أسباب الحياة في أنحائها المترامية، حاطّاً رحاله وأحماله في أية «يهماء» ذات غدير ماء وعشب أخضر صالح لاستهلاك أغنامه وجماله.



وأتقن العربيّ الأول فن الخلطة الحميمة في علاقته بالأرض الصحراوية. كان يعشقها لأنها تجود بالماء والكلأ، ويُشَبِّب بها وبحيواناتها حتى حين تشحّ بالمطر. ولم يُضِع حالة واحدة في التعاطي مع سرّ تعلقه بهذه الشريكة التي أعطى لكل بقعة من بقاعها البخيلة اسماً، أو صفة، أو إشارة.

كانت بيئته ومصدر رزقه، ومضمار رهانه على البقاء. ولذلك أتقن الصيد، والرعي، وخاض الحروب كلما استدعى الأمرُ الحفاظ على مصدر «ماء» خاص بالقبيلة، أو الحصول على ماء قبيلة أخرى. ومن بيئته هذه استلهم الصناعة الأولية التي أمّنت له: اللباس، والسلاح، والدواء.. فضلاً عن الغذاء.

> هرول كثير من «المضارب» المتنائية إلى المدن التي تجري من تحتها أنابيب المياه وتتوزع الخضرة في شوارعها من دون مطر

إذن كان العربيّ البدوي يعرف كيف يعايش طبائع الصحارى الشرسة. إنها صديقته الأولى، إن لم تكن أمه البخيلة الحنونة.

المضارب تهرول نحو المدينة..!

غزت المدنية الحديثة الصحراء، وهرول كثير من «المضارب» المتنائية إلى المدن التي تجري من تحتها أنابيب المياه، وتتوزع الخضرة في شوارعها من دون مطر، وتتوفر فيها أسباب الرخاء والحضارة بلا حاجة إلى «انتجاع» أرض أخرى، أو غزوة تسفك الدماء في سبيل كلأ أو غدير..!

جاءت الحضارة الجديدة بالعمارات العالية، وافترشت الشوارع الفسيحة، وأضاءت الليالي بالكهرباء، وربطت القاصي والداني بالهاتف الجوال. صنوف التحضر غيّرت وجه الحياة البدوية.. وأنزلت الفرسان من على ظهور الخيول والجمال، وأركبتهم السيارات المتفوقة في قطع الصحارى المنقطعة التي «تكذب فيها العينُ والأذن» حسب إشارة شعرية شفافة للمتنبي.

وإذا كان العربيّ الأول يفزع جائعاً بناقته أو فرسه إلى مهمهٍ بحثاً عن ظبي يشوي لحمه ويتغدى به، فإن العربي الجديد أصبح يخرج في نزهة مترفة بسيارته ذات الدفع الرباعي وسلاحه الناري ليطارد الظباء والحباري على نحو اقترب من إفناء عدد كبير من أنواع الحيوانات البرية.

ومثلما كان للعربي الأول آلاته البدائية التي يحتطب بها، فإن العربي الحديث اشترى آلات أحدث، وصار الاحتطاب أسهل وأوفر. وبالنتيجة صار الغطاء النباتي أكثر عرضة للتآكل والفناء على نحو أبسط ما يقال عنه: إنه خطير جداً.

وربما كان ذلك من الأسباب الداعية إلى تشديد الرقابة على أعمال الاحتطاب، وآخرها ما صدر عن وزارة الداخلية في المملكة العربية السعودية، مطلع محرم الماضي، حيث وصل التنظيم الجديد إلى إعفاء الفحم والحطب المستورد من الرسوم الجمركية لتسهيل دخوله البلاد وإنقاذ الغطاء النباتي المحلي من الاحتطاب الجائر.

الغطاء النباتي

وتحتضن أرض المملكة ما يقارب 2100 نوع من النباتات، 2% منها فقط نباتات متوطنة، و35% نباتات معمرة. وتتركز النباتات في المناطق الجافة، وبصفة رئيسة في المناطق المنخفضة كالروضات والأودية ومسارب المياه التي تتجمع بعد الأمطار.

وعلى الرغم من شح الماء والمطر، فإن الباحثين رصدوا ما يزيد عن 80 نوعاً من الزهور البرية في مناطق يُظن أنها قاحلة تماماً. وكم هو مدهش أن تكتسي رمال ضائعة في الربع الخالي أو صحراء الدهناء أو متاهات النفود بمفارش خضراء تتخللها عطريات شذية في قلب الجفاف الذي يبدو خالياً من أية إشارة إلى وجود حياة.

سياحة مهدرة.. وغابات مهددة..!

كوّنت النباتات الطبيعية ذاتياً متنزهات طبيعية لم يتدخل فيها الإنسان، فعلى سبيل المثال هناك «شعيب التنهات»، السهل الرملي الذي يبعد عن العاصمة الرياض بحوالي 185 كيلومتراً، ويرتاده الزوار في فصل الربيع، وتحاصره من الشرق رمال الدهناء، وهو كثير الشجر تصب فيه أودية أهمها الشوكي الذي يسقيه فيرويه لينزّه سكان نجد.

وفي حدود هضبة نجد، وحدها، الكثير من المتنزهات الأخرى، مثل: الحيسية، وصلبوخ، وغيانة، والخمرة، وحريملاء، وبعيثران، ومحرقة، ودقلة، والبسيتين، وروضة نورة، وفيضة الحقاقة، والخشم، والثمامة، والخفس، ووادي الطوقي، وروضة خريم، ووادي السوط، وروضة المحلية.. هناك أيضاً الروضات والأودية المبلّلة المخضرّة على عتبات الصمّان، أو في أعماق الدهناء، أوتخوم النفود الغنية بالحياة الفطرية التي تحتاج إلى المزيد من الحماية.

مئات من المواقع وجدت نفسها، تلقائياً، منتجعات سياحية طبيعية يرتادها السعوديون في مواسم الصيد والاحتطاب حيث تبرد الشمس المدارية وتنمو الأعشاب بعد هطول الأمطار أو أثناءها. هذه التلقائية أملت على المسؤولين عن السياحة والحياة الفطرية، في البلاد، التعاطي مع الواقع تعاطياً إيجابياً. وحالياً هناك أشكال كثيرة من التعاون بين الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها والهيئة العليا للسياحة لتنمية هذا النوع من السياحة.

العربي الجديد أصبح يخرج في نزهة مترفة بسيارته ذات الدفع الرباعي وسلاحه الناري ليطارد الظباء والحباري على نحو اقترب من إفناء عدد كبير من أنواع الحيوانات البرية

وبما أن السياحة مطلب وطني يدعم الاقتصاد، فإن حماية الحياة الفطرية مطلب استراتيجي يحمي الوجود البشري في المقام الأول. وما فعلته السياحة الصحراوية في السابق أضرّ كثيراً بالغطاء النباتي جرّاء الاحتطاب، مثلما أضرّ بالعديد من الأنواع الحيوانية جرّاء الصيد الجائر..!

المها العربي في مقدمة الحيوانات التي هدّدها الانقراض على نحو خطر للغاية، ويعيش هذا الحيوان في المناطق الصحراوية والوديان الجافة والكثبان الرملية والمناطق ذات الغطاء النباتي الخفيف، في صحراء النفود وصحراء الربع الخالي وكثبان الدهناء، وشبه جزيرة سيناء والأردن والبادية السورية وجنوب العراق وحضرموت وعدن. وقد جار الصيد على هذا الحيوان حتى اختفى تماماً، أو كاد، الأمر الذي استدعى إنقاذ ما يمكن إنقاذه بإعادة توطينه، فكان ذلك على يد الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية التي نجحت في توطينه وحمايته.

وتكررت الحالة ذاتها بتفاوت نسبي مع أنواع أخرى من الحيوانات البرية في المملكة، مثل: حيوانات الريم، والإدمي، والعفري، والوعل، والأرنب البري، والوبر. وطيور: الحباري، والكروان، والدجاج الحبشي، والسلوى، والخضيري، والشهرمان، والصواي، والشولر، والبلبول، والحذف، والحجل، والقطا، والحمام المطوق.. وقائمة طويلة من الحيوانات والطيور الأليفة والمتوحشة..!

المحميّات الطبيعية

كانت هذه الحيوانات شريكة الإنسان العربي في مواجهة ظروف حياة الرمال والصخور الشحيحة، لكنه - مستعيناً بآلات الحضارة - سعى إلى تدميرها ومحاصرة بيئتها الآمنة، وهذا هو الخطر الذي أحدق بصحراء المملكة في حياتها الفطرية، وهو ما استدعى تطويق هذا الخطر على نحو استراتيجي حاسم يساعد على استدامة الحياة بالحفاظ على أسبابها النباتية والحيوانية.

وعبر التشريعات التي استحدثتها الحكومة بدأت الدولة في مساعدة البيئة والحياة الفطرية على الصمود ومواجهة التصحّر والفساد البيئي. وهناك أنظمة متعددة وُضعت لهذه الغاية، مثل: نظام الهيئة



الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها، ونظام المناطق المحمية للحياة الفطرية، ونظام صيد الحيوانات والطيور البرية، ونظام الاتجار بالكائنات الفطرية المهددة بالانقراض ومنتجاتها.. الخ.

وألحّت الضرورة على إيجاد المحميات الطبيعية لتهيئة الظروف للغطاء النباتي والحياة الحيوانية للنمو، فكانت محمية (حرة الحرة) أولى المحميات التي أقامتها الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية. وهي تقع إلى الشمال الغربي من المملكة، وتمتد بامتداد شرق وادي سرحان، وتبلغ مساحتها 13775 كيلومتراً مربعاً. ويتألف سطحها من هضبة بركانية تكثر فيها الصخور البازلتية السوداء اللون، إضافة إلى جبال بركانية منخفضة يتراوح ارتفاعها بين 800 و1150 متراً. وتمتاز (حرة الحرة) بتنوع غطائها النباتي الذي يتشكل من نباتات معمرة وحولية تكثر في مجاري السيول وعلى جوانبها. ومن أهم الأشجار فيها: (الطرفا) و(الأثل) و(الأرطي) و(العوسج)، كما تحتضن المحمية أنواعاً من الشجيرات والأعشاب الحولية.

ومن أهم الحيوانات في هذه المحمية: غزال الريم، وغزال الإدمي، والذئب، والثعلب العربي، وثعلب الرمال، والضبع المخطط، والأرنب البري، واليربوع، إضافة إلى الحبارى وأنواع أخرى من الطيور المستوطنة والمهاجرة مثل: النسر الذهبي، والكروان العسلي، وتسعة أنواع من القنابر وعدد من أنواع الزواحف.

بعد (حرة الحرة) تتابعت المحميات الطبيعية التي توزعت على مناطق مختلفة من المملكة، هي: الخنفة في صحراء النفود، والطبيق في شمال البلاد، محمية الوعول غربي حوطة بني تميم، ومحازة الصيد في الشمال الشرقي لمدينة الطائف، وجرف ريدة في جبال السروات، وجزر فرسان وجزر أم القماري في البحر الأحمر، وعروق بني معارض، ومجامع الهضب، والتيسية، والجندلية، ونفود العريق، وسجا، وأم الرمث، فضلاً عن محمية الجبيل للحياة البحرية في الخليج العربي.

وتبلغ المساحة الإجمالية لهذه المحميات 81639 كيلومتراً مربعاً، أي ما يعادل 3.67% من مساحة

صباي.. في الصحراء

أجمل ما في ذاكرتي من صباي المبكر والمتأخر رهبة الصحراء وشاعريتها.. كان أهلي بدواً يشتاقون لصحرائهم فيعودون إليها كل سنة.. يقيمون في ربوعها، إقامة دائمة، ثلاثة أو أربعة أشهر.. ينصبون الخيام وبيوت الشعر بلذة عارمة.. ويطلقون أغنامهم على هواها في ظل (رعايتنا) نحن الصبيان بالتناوب. كنت أسرح في الغنم وأطلق عليها ما أشتهي من الأسماء: الصهباء.. العجفاء.. أم ضلوع.. المرنقطة.. الجماء.. أم قرون.

أحياناً، وكان هذا من أهم مغانمي الصحراوية، أعود بالغنم إلى (مراحاتها) محملاً بوليد جديد من إحداها: (طلي) إن كان ذكراً و(رخلة) إن كانت أنثى. وبينما أنا أحمل الوليد العزيز الذي لا يقدر على الوقوف بعد، يسيل لعابي لأننا الليلة سنتعشى (اللباة)، تلك الوجبة اللبنية التي لا تُطال إلا إذا ولدت إحدى شياهنا.

شيء آخر لا يقل طعماً عن قدوم وليد الشاه الجديد، ذلك هو سقوط المطر في أيام الربيع، كانت العواصف تهز خيامنا هزاً من شدتها، إلى درجة أنه يخيّل لنا أنها ستقتلعنا نحن، ثم ماذا يحدث؟ تسكن العواصف والرعود والبروق ويكف المطر.. نخرج من خيامنا مثل كل الكائنات الصحراوية نتشمم رائحة المطر ونملّي عيوننا بالشعبان والغدران التي تجري مياهها رائقة عذبة. حياة هادئة بعد حياة صاخبة.. منتهى السكون بعد منتهى العواصف، ومنتهى الفرح بعد منتهى الخوف.. تلك هي الصحراء: ليس أقسى منها حين تعصف أو تهددك بالتيه، وليس أحن منها حين تهب نسائمها العليلة بعد عواء الريح العاتية.

وليس بعد ذلك أجمل من تلك (السواليف) على مائدة العشاء البسيطة، أو تلك الألغاز التي كان أبي وأبناء عمومته يتحدون ذكاءنا بها. كنا ننام مبكراً بعد تلك السواليف والألغاز، ونصحوا مع أغنامنا طلعة النجمة كما كانت أمي تقول وهي تحلب إحدى أغنامها لتطعمنا حليبها مع خبزة الفرن أو قرص الجمر. هل ذقتم قرص الجمر؟ إنه، حين يغمس في السمن البري، ألذ من الكافيار في برج العرب.

بدوي معاصر



المملكة، وتغطي 33.9% من النظم البيئية، و44.8% من الأنواع الفطرية الرئيسة، و50% من المناطق الفيزيوجرافية، لكن الخطط الوطنية في هذا الشأن تطمح إلى تحويل 8% من مساحة المملكة إلى محميات بحيث يصل عددها، في المستقبل، إلى 103 محميات، منها 56 برية و 47 بحرية.

وتحاول هذه التنظيمات ومثيلاتها، أن تقول للمجتمع: «يجب عليك أن تكفّ عن محاصرة الحياة الفطرية بمدنيتك وآلاتها، يجب أن تبقى بمنأى عن تهديد نباتاتها وحيواناتها»، من أجل أن ينال التنوع الإحيائي حقّه الطبيعي في دورة الحياة. وهو ما يؤدي، أخيراً، إلى استمرار الصداقة الودودة بين الإنسان والكائنات الأخرى..!

على الرغم من شح الماء والمطر، فإن الباحثين رصدوا ما يزيد عن 80 نوعاً من الزهور البرية في مناطق يُظن أنها قاحلة تماماً

إن استمرار حياة البشرية مرهون ببقاء أسباب الحياة على الأرض. والصحراء - التي لا يبدو لنا منها إلا رمالها أو صخورها - غنية بأسباب الصمود والإصرار على البقاء. إنها جزء من بيئتنا الحية، وصداقتها ضرورة بقاء، وحيواناتها أمانة في أعناق الأجيال، ونباتاتها جزء من رهان الحفاظ على نوعنا البشري من الانقراض..!

الصور: أرامكو السعودية

إقرأ للصحراء

«البدوي الأخير»
القبائل في الصحراء العربية

لطالما شكّلت الصحراء العربية عبر التاريخ وحياً استلهم منه شعراء البادية قصائدهم، وقصدها رحّالة غربيون لتقصّي تاريخها وتاريخ القبائل التي سكنتها. يقودنا الرحالة مارسيل كوربرشوك من خلال هذا الكتاب في رحلة عبر فيافي الربع الخالي، مُتحرّياً عن تاريخ القبائل ومنغمساً في حياة البدو حتى الثمالة، حافظاً أشعارهم إلى حدٍّ أنّه نازلهم في قراءة الشعر بلهجتهم البدوية، وكان في كل لحظة يُدوِّن ما يشاهد ويسمع.

يقول الباحث الهولندي في كتابه: «الجزيرة العربية الصحراوية لا تَعْوِزُها السعادة، فهي أرض مترامية الأطراف قليلة السكان تمضي في طريقها هادئة، لا شيء يُعكِّر صفوها، غير مبالية بالركض المحموم وراء التحديث الماديّ في القصيم والرياض جنوباً وعلى ساحل الخليج شرقاً، بمنأى عن الغليان السياسي في الشرق الأوسط شمال الحدود السعودية».

قبيلة عتيبة بداية بحث كوربرشوك، ومنها انتقل إلى شمّر ومن ثَمَّ إلى الدواسر وكان أول غربي يطأ جبلي الدخول وحومل ليتحرى عن سِرّ العلاقة التي كانت تربط امرأ القيس بهما. ويفرد كوربرشوك، في سياق عرضه، تفاصيل حياة البادية، صفحات عن حروب القبائل فيما بينها طلباً للماء والرعي، ونظرة البدو إلى اقتناء الخيول، وعن النساء المحظور عليهن الاختلاط مع الرجال على الرغم من أنهنّ في الصحراء يعتنين بالدوابّ والغنم والماعز والاحتطاب ولسن أسيرات البيوت.

ويدوّن الكاتب في كتابه الحوارات والنقاشات التي كان يجريها في سهراته مع القبائل، منها ما يتعلق بالأديان وما يتعلق بفروقات الحياة بين المدنية والبداوة، والمراتب والطبقات وتعدد الزوجات. ولا يخلو كتاب كوربرشوك من نقد ومقارنات وعرض للتناقضات الكثيرة في حياة البدو، وصولاً إلى أكياس البلاستيك التي رماها سكان بيوت الشعر عشوائياً فنثرتها الريح هنا وهناك وعلقت بأشواك الأجمات الطويلة. ويقول في هذا الصدد: «ثار حسّي البيئي، لكن كيف أستطيع التعبير عن اعتراضي؟ نقاء الطبيعة، الفارق بين النفايات العضوية والنفايات التي لا تتحلل؟ أهي عقلية الاستهتار الضارّة للمجتمع الصناعي الاستهلاكي؟».

مؤذن الحرم المكي علي ملا.. درس الفنون التشكيلية.. يجمع التحف والمصنوعات اليدوية.. يهوى التصوير وجمع الطوابع

الأذان ليس وظيفة.. والمؤذن داعية

تترك زيارة الشيخ علي بن أحمد ملا، مؤذن الحرم المكي الشريف، لديك انطباعاً بأنك قمت بمقابلة فنان متعدد المواهب، فقد درس علي ملا الفنون التشكيلية في معهد التربية الفنية بالرياض، ثم تخرج من جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام 1403هـ. التحق بسلك التدريس منذ العام 1390هـ (1971م)، مدرساً فنياً، ثم عيّن موجهاً فنياً مع استمراره في التدريس. وأثناء عمله مدرساً أشرف على الفرق الكشفية لخدمة الحجيج وجمعية التصوير الفوتوغرافي، وكذلك على اللجنة الإعلامية في مدرسة عبدالله ابن الزبير المتوسطة، التي عمل بها حتى تقاعده مؤخراً. وإلى جانب ذلك، فللشيخ علي معرفة جيدة بصناعة الفضيّات اكتسبها منذ صغره.

حتى لا يضيع التراث

يهتم الشيخ علي ملا -الذي التقته القافلة في منزله بحي العوالي وفي (مكبرية) المؤذنين- كثيراً بالتحف والمصنوعات اليدوية القديمة، ويحتفظ بالعديد منها في منزله. يهوى التصوير وجمع الطوابع والنقود المعدنية، وهو عضو الجمعية العمومية لجمع الطوابع بالرياض، وعضو جمعية البريد المركزي بمكة، وعضو الجمعية السعودية للكشافة العربية، كما يحتفظ في منزله بمقتنيات أثرية عدة بعضها من أعمال والده الفضية. ويقول: إنه يُكوِّن بجمع هذه الأصناف البنية الأساسية لإنشاء متحف صغير يتركه لأبنائه وأحفاده «حتى لا يضيع التراث». ولكن قبل ذلك كله، فإن لدى الشيخ علي ملا ملكة صوتية متميزة، فصوته جميل، قوي وعذب يطرب المؤمنين بصوت الحق المنطلق من بيت الله الحرام في مكة المكرمة.

كبر علي ملا وتعلم في محيط الحرم المكي الشريف، فقد ولد بحارة «سوق الليل» المجاورة للحرم في مكة المكرمة عام 1366هـ، ونشأ بها ودرس الابتدائية بالمدرسة «الرحمانية» التي تقع في المسعى داخل الحرم ثم انتقل إلى حي «القرارة» المجاور أيضاً للحرم، وأكمل دراسته المتوسطة في الرحمانية المتوسطة التي تقع بسوق المعلاة. بعد ذلك درس المرحلة الثانوية في مدارس معهد العاصمة النموذجي بالرياض.

تراث الأذان في الحرم

ليس غريباً على علي ملا أن يُؤذّن في الحرم، فهو ابن إحدى عائلات المؤذنين المعروفة في الحرم المكي الشريف ومن هذه العائلات: الريس، البصنوي، شاكر، معروف، فيدا، خوج، الرمل، المؤذن، العباسي، وتأثر بهم خاصة عمه وأبناء عمومته، كما تأثر بالشيخ حسن لبني، إضافة إلى والده الشيخ أحمد ملا وعمه الشيخ عبدالرحمن ملا وخاله الشيخ عبدالحفيظ خوج وجده لأمه الشيخ عبدالله خوج، وكلهم من مؤذني الحرم. التأثّر لم يكن محصوراً على المؤذنين من عائلته المباشرة أو فقط بمن هم في مكة، بل تأثر أيضاً بالشيخين الأخوين، عبدالعزيز وعصام بخاري، من مؤذني المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة.

صعد علي ملا المنبر صغيراً ليؤذن لصلاة الفجر في الحرم المكي للمرة الأولى وهو ابن الثالثة عشرة بعد أن تعلم وتدرب على إجادة الأذان في منارة باب «زيادة»، ثم من بعد ذلك في منارة باب «المحكمة». يقول عن ذلك: «كان المؤذنون يتدربون في منارة باب زيادة التي تعد بمثابة مدرسة للمؤذنين».

في البداية، نظراً لتأثره بعمه وأبناء عمومته من المؤذنين، كان يتبعهم إلى الحرم، ثم يقوم بمحاولات للأذان من منارة كان يطلق عليها اسم «الصنجة»، أي الطرشة، لأنها كانت بدون مكبرات صوت، فلا يسمعها من رواد الحرم إلا من بجوارها. وقد عين مؤذناً رسمياً في المسجد الحرام عام 1395هـ بتشجيع من والده وعمه.

كان في الحرم آنذاك سبع منارات جميعها صنجاء، ولذلك كان ينطلق الأذان من كل منارة بصوت مؤذن من إحدى عائلات الأذان في مكة، فيبدأ مؤذن آل الريس أولاً ثم يتوالى الأذان بعد ذلك بتتابع، الهدف منه إسماع الجميع لعدم توفر مكبرات الصوت حينها. ولكن هذا النظام استمر حتى بعد استخدام المكبرات، وحتى قرار توحيد الأذان في المسجد الحرام في أذان واحد في التسعينيات الهجرية، وتمّ على إثره انتقال جميع المؤذنين إلى «المكبرية» التي يتجمع فيها المؤذنون في الحرم حتى اليوم.

وقد أذن الشيخ علي ملا في غير الحرم في موسم الحج ومناسبات مختلفة بالمشاعر المقدسة وفي مسجد قباء بالمدينة المنورة وفي افتتاح مسجد خادم الحرمين الشريفين في مدينة كاراكاس الفنزويلية، وقرأ القرآن في مراسم افتتاح المسجد. وأذن كذلك في افتتاح مساجد خادم الحرمين الشريفين في أدنبرة الاسكتلندية، ولوس أنجلوس بولاية كاليفورنيا الأمريكية وبجبل طارق الشهير الفاصل بين المملكة المغربية وأسبانيا.

الصلوات الخمس في الحرم تقسّم على جميع مؤذني الحرم الذين يبلغ عددهم حالياً خمسة عشر مؤذناً، وقد وصل عددهم في وقت سابق إلى 22 مؤذناً، بحيث يتواجد ثلاثة منهم في كل فرض صلاة. يقول الشيخ علي: «كل مؤذن منا عنده ثلاثة أيام يعمل فيها أساساً عدا أيام التغطيات. حسب جدولي أؤذن لصلاتي المغرب والعشاء كل ليلة جمعة، بالإضافة إلى صلاة الفجر والظهر يوم الجمعة. كما أؤذن للمغرب والعشاء ليلتي الاثنين والأربعاء». أما في تكبيرات وتهليلات يومي عيد الفطر والأضحى، فيمر مكبّر الصوت (الميكروفون) على جميع المؤذنين بالتوالي.

في هذه الأيام، يتم اختبار المؤذنين الجدد على أساس سماع الصوت من قبل شيوخ الأذان على الطبيعة وفي شريط مسجل ليتم تقويم المؤذن على أساس من هذا الاستماع. يقول الشيخ علي معلقاً على ذلك: «المؤذن داعية يدعو الناس إلى المسجد لأداء الصلاة، فسماع الأذان بصوت جميل يقرّبه للنفس. وليس للأذان مقامات موسيقية كما يظن البعض، ولكنها أساليب وطرق تميّز أصحاب كل أذان عن سواهم، وهكذا تأتي الفروق والمسميات مثل الأذان المكي والأذان المدني».

يمكن سماع صوت الشيخ علي الآن على كثير من أشرطة الكاسيت التي تباع قرب الحرم، وفي بعض المحطات الفضائية وفي بعض الساعات المنبهة أيضاً، ولكن كل ذلك دون أن يستأذنه أحد في استخدام صوته. ويوشك الشيخ علي أن يفرغ من تأليف كتابين يعمل حالياً عليهما، أحدهما عن تاريخ الأئمة والمؤذنين في المسجد الحرام، والآخر عن أسماء حارات مكة القديمة وشعابها وبيوتها القديمة.

وأخيراً لا يعتبر مؤذن الحرم المكي الأذان وظيفة، فالتقاعد منه، في رأيه، يأتي مع الوفاة أو حدوث عارض يمنع من أدائه.

خالد الطويلي

الإنسان والبكتيريا

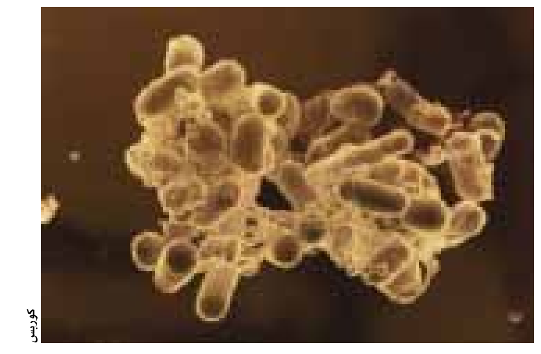
الهدنة.. أفضل للإنسان

بعدما شهد القرن العشرين انتصار الطب على البكتيريا من خلال سلاح المضادات الحيوية، تتجه الدراسات الحديثة إلى التأكيد على أن هذا الانتصار كان ظاهرياً فقط وأن الهدنة بين الطرفين قد تكون أفضل للإنسان.

فقد تأكد للعلماء أن العديد من أنواع البكتيريا اكتسب مع الوقت معرفة كافية لمقاومة هذه المضادات. وكلما مضت المختبرات إلى الأمام في سعيها إلى مضادات جديدة لم تعتد البكتيريا عليها بعد، تبين أن مصير هذه المضادات الجديدة لم يكن أفضل من سابقاتها، وأنها لم تسهم في الواقع إلا في تقوية البكتيريا وزيادة عدائيتها.

إزاء ذلك، وجد الباحثون أنفسهم مضطرين إلى إعادة التفكير في الاستراتيجية المتبعة، وبدلاً من الحرب، لماذا لايكون السلم؟

فقد اكتشف العلماء أن البكتيريا لا تهاجم الإنسان إلا إذا كانت تعرف أن أعدادها كبيرة إلى حد كافٍ للتغلب عليه. وهي تتوصل إلى ذلك من خلال لغة خاصة. تقول الدكتورة بوني باسلير من جامعة برنستون أنها «لغة كونية»، لذا بدأ العلماء بعقد هدنة مع هذا العدو


كوربس

التاريخي، بتصنيع عقاقير تخدع البكتيريا بدلاً من أن تقتلها، وتُشعِرها أنها ضعيفة وقليلة العدد من خلال تعطيل اتصالها ببعضها، وردعها عن القيام بأي هجوم على جسم الإنسان.

وقد بدأت بالفعل بعض شركات الأدوية مثل «4SC» في ميونخ بألمانيا و«Quorex» في كاليفورنيا بمحاولة إنتاج هذه العقاقير. ويأمل العلماء أن تصبح هذه الطريقة قيد الاستعمال على نطاق واسع خلال السنوات العشر المقبلة.

شاشات المستقبل

الورق الإلكتروني الليّن

رقائق السيليكون المعتمدة تقليدياً وأينما كان في صناعة أجهزة الكومبيوتر والأجهزة الإلكترونية، قد تختفي لتحل محلها رقائق من البلاستيك!

فقد توصل العلماء منذ منتصف التسعينات من القرن الماضي، إلى وضع تصور يؤدي إلى صناعة هذه الرقائق من مواد بلاستيكية أكثر خفة ورقة ومتانة وتحملاً من رقائق السيليكون، ولا تكلف أكثر من خمسة في المئة مما تكلفه هذه الأخيرة، وقد بدأ بالفعل التخطيط لإنتاجها صناعياً.

فبالإضافة إلى إمكانية إنتاج شاشات للكمبيوتر والتلفزيون وغيرها مسطحة مرنة (Flexible)، بالإمكان إنتاج ورق إليكتروني. وقد تمكن باحثون في جامعة لينكوبن في السويد من اختبار ناجح لمثل هذه الأوراق في السنة الماضية، واهتمت عدة شركات في كافة أنحاء العالم بإنتاج مثل هذه الأنواع الورقية.

وتطبيقات هذه الأوراق كثيرة ومتعددة، فبإمكاننا أن نستعمل هذا الورق على جدران منازلنا الداخلية، ونغير لونه ورسوماته ساعة نشاء وبالطريقة التي تلائم مزاجنا وذوقنا في أوقات معينة، فنستعمل ألواناً زاهية في أوقات الفرح وأخرى في أوقات الحزن. في الصباح نختار شيئاً نغيره في المساء. وربما حصلت ثورة في صناعة الإعلانات ولافتات المحلات التجارية والشركات وتعبئة المعلبات وألعاب الأطفال وغيرها وغيرها.

ولكن قبل ذلك، لا يزال مطلوباً من هذه الصناعة أن تتخطى بعض المشاكل الثانوية المتعلقة ببعض الألوان وتوصيل الطاقة.

خريطتك الجينية

.. قريباً بألف دولار فقط

بلغت كلفة الخريطة الجينية التي وضعها العلماء سنة 2001م نحو ثلاثة بلايين دولار، أي بمعدل دولار واحد لكل معلومة من الثلاثة بلايين معلومة التي تتضمنها، ولكن طرقاً جديدة لتسجيل الخريطة الجينية لكل فرد تبشر بتخفيض التكاليف بشكل لا يمكن تصديقه.

من هذه الطرق الواعدة ما يقوم على قراءة خلايا الحمض النووي ويسمح بالحصول على نتائج فورية . وهكذا صار الطبيب الأميركي كريغ فانتر يعرض على ممولي أبحاثه حول علم الجينات، خرائطهم الجينية الخاصة على اسطوانة مضغوطة مقابل 712,000 دولار.

هذه التكلفة التي لا تزال باهظة، قد تنخفض قريباً على يد الجمعية البريطانية«سوليكا»، التي ستعرض خلال خمس سنوات من اليوم، الخرائط الجينية الشخصية مقابل ألف دولار ونقطة دم فقط.

البصل الجديد

من غير دموع


المحترف السعودي

حتى الأمس القريب، كان الباحثون يعتقدون أن سيل الدموع بسبب تقطيع البصل يعود إلى أنزيم محدد يتحرر وينتشر في الجو بمجرد تقطيع خلايا البصلة، وأن هذا الأنزيم مرتبط بنكهة البصلة، فلا يمكن التخلص منه من دون تغيير مذاقها.

باحثون في شركة الأطعمة المنزلية في اليابان، اكتشفوا أن هذا الأنزيم المسؤول عن مذاق البصل، لا يصبح مؤثراً على العينين إلا بفعل أنزيم آخر لا علاقة له بنكهة هذه الثمرة، وبعزل هذا الأنزيم من التركيبة الجينية صار من الممكن إنتاج بصل جديد يحتفظ بكامل طعمه ولا يتسبب تقطيعه بإسالة الدموع.

غير القطران والنيكوتين

لائحة مرعبة

المحترف السعودي

القطران والنيكوتين كلمتان تختصران من باب التبسيط (أو عن سوء نية) مخاطر التدخين التي تبدو منحصرة في مادتين فقط. الدراسات المخبرية الدقيقة تضع لوائح أكثر تفصيلاً بمجموعة مرعبة من السموم تدخل جسم الإنسان مع كل نفس سيجارة. وأخطر هذه السموم هي:

- سائل قابل للاشتعال، يحتوى على نسبة عالية من المواد السامة والمهيجة للأعصاب: الآسيتالديهيد.
- مادة مذوبة تستعمل في صنع البلاستيك والمطاط الصناعي والأكريليك ومبيدات الحشرات: الآسيتونيتريت.
- سائل سام يفرز أبخرة مهيجة ومسببة للسرطان: الأكرولين.
- مادة تستعمل في صناعة الأنسجة والجلود: الأسيد فورميك.
- مركب معدني يستعمل في صنع المتفجرات والسماد الكيميائي والمواد المنظفة: الأمونياك.
- غاز سام يستعمل في إنتاج المطاط والمذوبات الداخلة في صنع الدهانات: كلور المميثيل.
- سمٌ يستخدم في إعدام المحكومين بالموت: سيانور الهيدروجين.
- غاز مهيج يستخدم كمنظف، مسبب معروف للسرطان: الفومالديهيد أو الفورمول.
- سائل كحولي يستخدم في صنع مضادات التجلد والمحروقات والمواد الصمغية والمخدرات: الميثانول.
- مادة خانقة تحد من تغذية الأنسجة العضوية بالأوكسجين: مونو أوكسيد الكربون.
- مركب حمضي سام جداً: الفينول.
- سائل يستعمل كمنظف أومطهر: البروبريونالديهيد.

ما هو أصل علامة السؤال؟

طرحت مجلة «نيو سينتست» سؤالاً حول أصل علامة السؤال (؟). وقد كان هناك أكثر من نظرية حول هذا الأصل: الأولى تقول إنها رُسمت هكذا لأنها تشبه شكل الأذن، والثانية تقول إنها كُتبت في الأساس على شكل الحرف الأول من كلمة سؤال باللاتينية (q)، الذي تحول إلى (؟) مع الاستخدام.

أما الإجابة الأكثر إقناعاً فتقول إن علامة الاستفهام بدأت تستخدم في القرون الوسطى كعلامة النوتة الموسيقية وتحتها نقطة. أما النقطة فهي مشتركة بين ثلاث علامات تنتهي معها الجُمل، السؤال والتعجب ونقطة التوقف العادية (؟ ! .). أما علامة النوتة الموسيقية فقد تحركت مع الوقت لتأخذ وضعاً مستقيماً (؟.) ويكتمل شكلها مع حركة اليد الطبيعية لتصبح كما نراها اليوم. وقد استخدمت في الطباعة حوالي 1400م. الأسبان استخدموها مقلوبة في بداية جملة السؤال لفترة من الزمن ثم استخدموا واحدة في البداية وأخرى في النهاية، أما العرب فلم يستخدموا هذه الإشارات إلا في العصر الحديث، فجملنا كانت متشابهة تنتهي بمعانيها دون علامة توقف، كما هو معروف.

لم تعد الموسيقى بمنأى عن التطور التكنولوجي السريع الحاصل في العالم، فالكومبيوتر الذي كان الوسيلة المفضَّلة لتحسين كافة أنواع الخدمات بما فيها الموسيقى، دخل في صلب «الصناعة» الموسيقية تأليفاً وتلحيناً. المهندس **جورج نحّاس*** وافانا بهذا العرض لأبرز سمات عالم الموسيقى الجديدة.

حفلة اللاب توب

الكومبيوتر يصنع الموسيقى.. لكنّه لا يأسِر أحاسيسنا

في مكان ما من وسط مانهاتن جلس عدد من الموسيقيين الشبّان، يحتويهم جوّ حالم، وتجمعهم برامج الكومبيوتر والمعدات الإلكترونية والتوصيلات وأقراص الليزر المدمجة وكل ما تحتاجه موسيقاهم الجديدة. كانوا يتبادلون الملفات الصوتية وليس النصوص. تلتقي أعينهم ببعضها، ثم تفترق لتحملق في شاشات الكومبيوترات النقالة «اللاب توب».

إن الموسيقى التي تُؤلَّف هنا هي نفحة من موسيقى المستقبل، كما يتبين من إيقاعاتها المركَّبة وطعمها الحادّ. إنها موسيقى إلكترونية، فقد دخل الكومبيوتر عالم الموسيقى موزعاً ومسجلاً ومصححاً لنشاز أو بروز أصوات آلات دون غيرها، أو خافضاً لأخرى ومختصراً وقت التسجيل وإعادة التسجيل، من دون أن ننسى قدرته على تقديم المؤثرات الصوتية وحتى التحكم في نوعية صوت المغنِّي.

* باحث في مجال الموسيقى العربية

أسسه العامة

تدخُّل الكومبيوتر في الموسيقى يتم بواسطة عاملين أساسيين هما: بطاقات الصوت (Sound Cards) الموجودة داخل الكومبيوتر أو المتصلة به، وبرامج الكومبيوتر واسعة الإمكانات التي تسهّل كثيراً التوزيع الموسيقي والتسجيل الرقمي فائق الدقة، من دون حاجة المؤلف الموسيقي في أكثر الأحيان إلى دراسة موسيقية عالية لوضع عمل موسيقي بتقنية عالية وصحيحة والذي كان في الماضي القريب، صعباً حتى على المحترفين القيام به.

تتلقى بطاقة الصوت نوعين من التسجيلات: «ميدي» (Midi) و«ويف» (Wave) على درجة مختلفة من الحساسية، أي من 16 بايت إلى 24 بايت وعلى ذبذبة تصل إلى 48 كيلو هيرتز (مع العلم أن الأقراص الرقمية المدمجة المتوافرة في الأسواق تسجل عادة على 16 بايت و 44 كيلوهيرتز). وهذا ما يسمح بالتسجيل على عدد كبير من المسارب. والبرامج المهنية المتوافرة تسمح بتسجيل ما لا يقل عن 256 مسرباً، وتتيح تسجيل صوت كل آلة على مسرب معين، ثم يعاد جمعها وخلطها بواسطة المازج (Mixer)، والتحكم بها وإخراجها على شكل ستيريو محيطي (Surround)، وهو شكل حديث يوزع الأصوات على سبعة مكبرات ومضخمات للصوت. ولعل من أشهر البطاقات المستعملة تجارياً لهذه الغاية هي في الوقت الحاضر «ديجي ديزاين بروتولز» (Digidesign Protools) و«كريتيف» (Creative).

> أنت تؤلف البرنامج أو تشتريه والبرنامج يؤلف اللحن، فمن هو الملحن؟

وللإفادة من البطاقة الصوتية، من الضروري وجود برامج تقوم بعملية التسجيل والتوزيع الموسيقي. ومن أشهر هذه البرامج: Cakewalk, Logic, Turtle, Beach, Cubasis, Audio Protools وغيرها الكثير.



المحترف السعودي

أمثال هذه البرامج صارت تنتجها شركات صغيرة يؤسسها أصدقاء باستثمارات قليلة ومن دون تدخل رأس مال ضخم، فهناك مثلاً في برلين شركة صغيرة أسسها زوجان ألمانيان عام 1996م، تخصصت في تصميم البرامج الموسيقية للعامة. وقد تجاوزت إصداراتها العشرة برامج، إضافة إلى الموسيقى الإلكترونية على أقراص مدمجة عبر أوروبا. ويدّعي الزوجان الألمانيان أنهما ينظران إلى برامج الكومبيوتر كعمل فني إبداعي أكثر منه صناعة آلة.

إن هذه البرامج الموسيقية التي تتضمن بدورها عدداً هائلاً من المسارب (Tracks)، تسمح بتسجيل كل آلة أو صوت على مسرب، بحيث يمكن التحكم بكل خط فيها من ناحية القوة والضعف والسرعة والبطء، وتغيير الطبقة الصوتية إلى أعلى أو أسفل وتطبيق عملية التناغم (الهارموني)، حتى وإن كان المؤلِف الموسيقي لا يعرف عنها شيئاً، وكذلك إدخال المؤثرات الصوتية عليها، المعروفة بالجوق والصدى والترداد.. وإضافة إلى

ذلك، يمكن التحكم بنوعية الصوت، حتى صوت المغني مثلاً، وتحويله إلى صوت أرفع أو أعرض، وتصحيح النشاز في حال حصوله عند العزف أو الغناء من دون أن يضطر العازف أو المغني إلى إعادة التسجيل، كذلك نقل التسجيل من مسار إلى آخر.

وفي تسجيل «ميدي» يكفي العازف أن يسجل اللحن الموسيقي مرة واحدة ثم يتم بواسطة هذه البرامج اختيار نوع الآلة (كمان، فلوت، ساكسفون أو حتى أوركسترا كاملة) التي يريدها الملحن من دون أن تعزف مرة ثانية، ويطبق هذا الاختيار على أي مقطع من اللحن المسجل. ويبقى أمرٌ مهم آخر هو أن هذه المسارات المسجلة يجمعها ويخلطها الـ (Mixer) الموجود في هذه البرامج، مع التحكم بكل مسار من حيث إبراز الصوت أو خفضه، إضافة إلى المؤثرات التي تحدثنا عنها سابقاً وإخراجها للمستمع بالشكل الذي يريده المؤلف الموسيقي والموزع.

أما تسجيلات الموجات الصوتية «ويف» التي تقوم على التسجيل المعروف بواسطة ميكروفون، فالبرامج المتوافرة تعطي ميزات كثيرة، منها قدرة عامل الكومبيوتر على زيادة أو خفض سرعة العزف أو الغناء من دون أي تغيير في الطبقة الصوتية، أو تغيير طبقة الصوت من دون المساس بالسرعة، وتركيز الموقع الملائم للصوت من حيث قوته، أي قربه أو بعده من الميكروفون وغير ذلك.

وتسمح البطاقة الصوتية والبرامج الخاصة بها بالقيام بعملية (التوليف) بدقة فائقة. وكانت عملية التوليف تعتبر من أصعب المهام التي يقوم بها مهندس الصوت للحصول على تسجيل لا يفقد فيه الحرف أو الوزن الموسيقي شيئاً من نوعيته، أو يؤثر في التوقيت الزمني عند حذف أي جملة أو كلمة أو مقطع من اللحن.

تسارع تطورها .. مشكلة

منذ فترة طويلة توقع الكثيرون ظهور هذا النوع من الموسيقى، وها هي اليوم تبدو حقيقة، ولكنها مشكلة، فبرامج الآلات والأصوات صارت سيلاً لايتوقف، وقد تتجاوز سرعة الاختراع استيعاب الناس وتفهمهم للأعمال نفسها. ونشير في هذا الصدد إلى أن اكتشاف أسرار العزف على الجيتار واكتساب أسلوب خاص يتطلب من العازف سنوات من الدراسة والتجريب، ولكن برنامجاً واحداً من هذه البرامج يتيح عدداً غير محدود من المؤثرات القوية على مماثل الجيتار الخيالي، فيتساءل روبرت هانكه من فريق «مونوليك»: «هل أذهب إلى الأستوديو لأعمل أغنية، أم أجلس لأصمم برنامجاً لعمل الأغنية التالية؟»، غير أنه يجيب بنفسه عن هذا السؤال باقتراح القيام بالعملين معاً.

أما ميغيل دي بيدرو، الذي يدير مجموعة تايغر بيت في كاليفورنيا، فيتذمر من تسارع التطورات على صعيدي إنجاز برامج جديدة وقدرات هذه البرامج. ويقول: «ما إن نتعلم برنامجاً جديداً حتى تظهر عدة برامج جديدة وقوية أخرى.. كم أتمنى أن يتوقف كل شيء ولو لعامين فقط.. لا برامج جديدة، ولا كمبيوترات أسرع ولا تقدم آخر، ثم ننظر ماذا يحدث!» فكلما كانت الخيارات واسعة، كلما كان ذلك مدعاة للتغاضي عنها ونسيانها. ولهذا يتخوف الموسيقيون المستخدمون لهذه التقنية من المستقبل الذي يصنعونه بأنفسهم الآن.

وأخيراً، قد يظن المرء أن قدرات الكومبيوتر محصورة بالموسيقى الغربية، وأنها عاجزة عن التأثير في موسيقانا الشرقية، التي تتميز بالأوزان الموسيقية والآلات غير المستعملة في الموسيقى الغربية، كالعود والقانون والناي والآلات الإيقاعية، والأهم (الربع تون) الذي يميز أهم المقامات العربية كالرست والبيان والسيكا وغيرها، إلا أن برامج الكومبيوتر الموسيقية تتيح استعمالها جميعها من دون أي عائق.

لكن على الرغم من المنافع الجمّة التي أمّنها الكومبيوتر للموسيقى، يبقى شيء واحد لا ولن يستطيع الكومبيوتر أن يوفّره، وهو التفاعل النفسي والإحساس الإنساني الذي يضيفه الغناء والعزف الحي الجماعي منه والفردي، وكذلك أصوات الآلات الطبيعية التي على الرغم من التطور الهائل في الإلكترونيات إلا أنه لم يستطع أن يلامس الحس الطبيعي لها والدخول من خلالها إلى أعماق الوجدان.

«هل أذهب للأستديو لأعمل أغنية أم أجلس لأصمم برنامجاً لعمل الأغنية التالية؟»

«كم أتمنى أن يتوقف كل شيء لعامين فقط .. لا برامج جديدة ولا كمبيوترات»

غياب المضمون.. أشدّ فطراً على الموسيقى

يتعرض قطاع الموسيقى المسجلّة إلى عوامل تهدّد وجوده، وذلك لعزوف الناس عنه إلى مجالات ترفيهية أخرى. وربما يفسّر هذا تهافت المطربين العرب الجدد على ما يُسمّى «الفيديو كليب» في محاولة لإيجاد منافذ أكثر جاذبية لأعمالهم، إضافة للسمع.



لكن مساحات الموسيقى المسجلة، التراثية أو الكلاسيكية الغربية، آخذة في الانحسار، خاصة في الغرب. وأول أسباب هذا الانحسار على مستوى الدخل، للجهات المنتجة، كانت القرصنة بشكلها القديم والجديد.

وقد أدت هذه الظاهرة في (الأسواق الضعيفة) نسبياً مثل أسواق بلادنا، إلى إحجام بعض الفنانين عن الإقبال على التسجيل خوفاً من أن يتكلفوا التسجيل، ثم يجدوا أن الرابح هو الجهات غير المخولة.

بدأت مشكلة القرصنة الموسيقية، وهي نسخ ألحان وأغانٍ دون دفع حقوق ملكية، تظهر خاصة مع شيوع الكاسيت في الستينات. ومع مرور الوقت، هبطت أسعار الكاسيت غير المسجل، مما جعل شراؤه مسجلاً يهبط بشدة. وتكررت القضية مع ظهور الفيديو وظهور الأفلام المسجلة بدون حقوق نشر، وغدت ظاهرة شائعة خاصة في بلدان العالم الثالث، وعادت وظهرت مع الـ CD الموسيقي كذلك.

هنا استفحلت حجماً مع دخول دول جنوب شرق آسيا، بما في ذلك الصين، إلى هذا المجال بأحجام إنتاج ضخمة. وفشلت أغلب الحملات في التأثير على حجم انتشار ظاهرة القرصنة.

وبينما كانت المعركة أشدّ ما بين شركات الإنتاج الغربية «والقراصنة» المنتشرين في كافة أنحاء العالم، إذ بمسرح الأحداث تطفو عليه ظاهرة لم تكن على الخاطر والبال، وهي القرصنة من خلال الإنترنت.

اليوم تعاني شركات الإنتاج من أزمة كبيرة، لأنها عجزت إلى الآن عن أن تجد أية صيغة تستطيع من خلالها أن توفر خدمة، خاصة للجيل الأكثر إقبالاً على الموسيقى وهو جيل الشباب، يكون لها فيها مقابل ولو بسيط، وهي الآن تجد نفسها فعلاً مهددة في بقائها، وقد زاد من تهديد قطاع الموسيقى المسجلة (القانونية) على ما يبدو، أن الناس يميلون هذه الأيام إلى تخصيص قدر أكبر من ميزانيتهم (الترفيهية) إذا جاز التعبير لـ DVD والكمبيوتر، أو الذهاب إلى المسرح والسينما بدلاً من شراء الأقراص الموسيقية المدمجة CD's.

لكن الأهم من كل ما سبق على ما يبدو أن الضعف المتزايد في المضمون الثقافي هو السبب المباشر الذي أخذت شركات الإنتاج الكبرى في الغرب تقف أمامه بجدية شديدة، ولا زلنا هنا نعلق عليه من منطلقات ثقافية وحسب، وقد اكتشفت هذه الشركات أنها أهملت لسنوات طويلة المضمون الإبداعي للأعمال الفنية مما أدى مع الوقت إلى انحسار الإقبال العام عليها وابتعاد قطاع كبير من المشترين الحقيقيين عن الشراء.

وبينما تنصبّ الجهود على محاولة إيجاد صيغة لمقاومة «رشح» الإنترنت، توضع جهود أكبر في البحث عن المعنى في اللحن والكلمة.

قصة ابتكار

مفك البراغي

حين طُلب إلى باحث جامعي أن يختار أهم آلة استخدمت في الألفية الثانية، وقع اختياره على مفكّ البراغي، فهذه الآلة كان لها في نظره أهمية بالغة في تطور التكنولوجيا الحديثة، ودورٌ أساسيٌ في صنع الأجهزة المعاصرة.

البرغي ومفك البراغي ابتكاران حديثا العهد نسبياً وإن كانت جذورهما تعود إلى القرن السادس عشر الميلادي.

في ذلك العصر، كان صانعو الأسلحة (البنادق والمسدسات) يستعملون أداة ذات مقبض خشبي أكبر بقليل من راحة اليد، في طرفها شفرة معدنية قصيرة وغليظة لضبط آلة السلاح. وكانت آلة السلاح تُثبت على الخشب بواسطة المسامير العادية. وبمرور الوقت، تبين أن المسمار يلتصق على نحو أفضل بالخشب إذا حُفر بشكل حلزوني، فظهر البرغي.

كان البرغي الأول يُدَقُّ في الخشب بواسطة مطرقة، وكان انتزاعه صعباً للغاية. الحل الوحيد كان في حفر خط فوق الجزء الظاهر منه، ليصبح انتزاعه ممكناً ببرمه في الاتجاه المعاكس بواسطة أداة خاصة - كانت في الواقع أول مفك براغي - صممها الفرنسي فيليبيان سنة 1676م.

ظلت البراغي تصنع باليد طوال قرنين من الزمن، ولذا كانت غالية الثمن، ولا تستعمل إلا في الأسلحة وبعض الأدوات المميزة في قيمتها.

في أواخر القرن الثامن عشر، تمكّن مبتكر (على الأرجح من برمنغهام في انجلترا) من صنع البراغي بالجملة بواسطة الآلات، فانخفض ثمنها وصارت تستعمل في صنع المفروشات والأبواب وما شابه ذلك. ولكنها كانت حتى آنذاك من دون «طبّة» تبقى خارج الخشب. وبسبب غرزها في الخشب بواسطة مطرقة، صارت هذه البراغي تحتاج إلى أداة ذات شفرة أطول من السابق لسحبها إذا استدعى الأمر.

في العام 1780م ظهر في لندن أول «مفك براغي» يتميز بشفرة طويلة ذات رأس دقيق. وفي العام 1840م طوّر الإنجليزي نيتْلفولد برغي الخشب بإضافة «طبّة» مستديرة تبقى خارج الخشب، وشَقَّ هذه «الطبة» بعرض أوسع بقليل من عرض رأس شفرة الأداة. ومنذ ذلك الحين صار المفك لا غنى عنه للصناعة، أية صناعة.

وهكذا صار لكل حجم من البراغي مفكّه الخاص، وللبراغي المستخدمة في الصناعة أيضاً مفكّاتها الخاصة، وصولاً إلى أكثر أشكالها تطوراً، وهي المفكّات التي تدور بواسطة التيار الكهربائي لغرس هذا البرغي أو انتزاع ذاك، ولكنها تعود كلها إلى أصل واحد.

قصة مبتكر

نيقولا تيسلا

700 براءة اختراع باسم الرجل الذي تخلّى عن حقوقه كي تصل الكهرباء إلى كل الناس بأسعار معقولة

إذا كان التاريخ قد حفظ لنا اسم توماس أديسون كمكتشف للكهرباء نعرفه جميعاً، فإن المهندس والعبقري الأمريكي نيقولا تيسلا هو صانع عصر الكهرباء برمته من دون أن ينصفه الزمن، فللرجل أكثر من سبعمائة براءة اختراع قام معظمها على اكتشافه التيار الكهربائي المتردد (مقابل التيار المباشر الذي اكتشفه أديسون)، واختراع مولدات لهذا التيار ووسائل نقله، وأسس معظم الأدوات الكهربائية التي تستخدم هذا النوع من التيار الكهربائي. ومن دونه ربما لم يكن هناك راديو ولا تلفزيون ولا هاتف ولا شبكات كهرباء في المدن.....

ولد هذا العبقري في صربيا ودرس الفيزياء والرياضيات في فيينا، ومن ثم الفلسفة في براغ. وعندما وصل مهاجراً إلى أمريكا سنة 1881م لم يكن في جيبه أكثر من أربعة سنتات. وجد عملاً بسرعة عند توماس أديسون الذي صار لاحقاً منافساً له على الصعيد العلمي. وانتهت العلاقة مابين الاثنين في أقل من عام عندما رفض أديسون أن يدفع له خمسين ألف دولار بدل أتعابه في إصلاح مجموعة المولدات والمحركات في مؤسسته.

اضطر أن يعمل في حفر الأرض مقابل دولارين في اليوم، قبل أن ينهض من جديد ويجد عملاً في تصميم وتنفيذ المولد الكهربائي للتيار المتردد في منطقة شلالات نياغارا.

وفي شهر مايو 1885م، عندما أراد جورج وستنكهاوس شراء مجموعة من براءات الاختراع من تيسلا ومن ضمنها مولدات متعددة المراحل لتوليد التيار المتردد، ومحولات، ومحركات، أي الأسس التي قامت عليها صناعته ولا تزال حتى اليوم في أساس الصناعة الكهربائية، تبين لوستنكهاوس أن شركته ستفلس إذا دفعت لتيسلا حقوقه البالغة 12 مليون دولار، فما كان من المخترع إلا أن تخلى عن هذه الحقوق كي يتمكن كل الناس من الاستفادة بكلفة بسيطة من فوائد التيار المتردد.



يلخص العلماء المقارنة بين أديسون وتيسلا بالقول إن أهمية الأول تكمن في تركيزه على الابتكارات المباشرة التي يسهل تنفيذها، في حين أن معظم ابتكارات تيسلا كانت ذات رؤية بعيدة تثير الجدل في حينها، وتحتاج إلى فترات طويلة كي تتجسد، فالرجل فكر في التلفزيون والفاكس والكومبيوتر وكتب الكثير حول هذه المواضيع، غير أن معظم أوراقه اختفت بشكل غامض بعد وفاته.

وعلى الرغم من أن الرجل قضى فقيراً معدماً، لأنه كان يتخلى عن حقوقه لصالح البشرية والأعمال الخيرية، فإن غرابة أطواره الشخصية كانت لافتة للنظر إلى درجة أنها شكّلت مصدر إلهام لشخصية العالِم الشرير في رسوم الكرتون الشهيرة (سوبرمان).

التصوير الرقمي في مكانه المناسب

التصوير الرقمي تعبير جديد نسبياً، دخل أولاً لغة المصورين المحترفين ومن ثم الهواة.

المحترفون أولاً، لأنهم كانوا السبّاقين إلى الاستفادة منه، إذ اختصر هذا الاختراع الحديث الوقت الفاصل ما بين التقاط صورة وتوزيعها على وسائل الإعلام، من ساعات إلى بضع دقائق فقط. ومثل كل الاختراعات الحديثة راج التصوير الرقمي لاحقاً في صفوف الهواة أيضاً، غير أنه لا يزال حتى اليوم مصدراً لكثير من الأسئلة حول ما هيته وجدواه وآفاق مستقبله.

فما هو التصوير الرقمي؟

في سنة 1990م أنتجت شركة «كوداك» بالتعاون مع شركة «نيكون» أول آلة تصوير رقمية (Digital). وفتح هذا التحول في صناعة آلات التصوير الأبواب على مصاريعها أمام عمليات تطوير وتجديد لا تزال مستمرة حتى اليوم بهدف الحصول على صورة عالية الجودة تتميز بسهولة معالجتها وإنتاجها وسرعة نشرها وتوزيعها.

والنظام الرقمي هو باختصار نظام برمجة إلكترونية يسمح بتحويل الضوء المعكوس من المشهد المفترض تصويره إلى شحنات كهربائية. أي أن الفوتونات الضوئية التي تمر عبر العدسة والمغلاق تتحول إلى إلكترونات من خلال لوحة ثلاثية التكافؤ تسمى (Charged Coupled Device) وتسجَل هذه اللوحة الصورة بدلاً من الفيلم السلبي الذي كان يقوم بهذه المهمة في التصوير التقليدي المعروف.

وطالما أن الصورة الرقمية تتألف من عدد كبير من النقاط الصغيرة جداً (Pixels)، فإن جودتها مرتبطة بعدد النقاط التي يمكن أن تلتقطها اللوحة المسجلة. وكلما كان هذا العدد كبيراً فهذا يعني أن النقاط أكثر كثافة، وتصبح الصورة بالتالي أوضح وأفضل، مما يسمح بتكبيرها أكثر فأكثر.

وهكذا صار بإمكان المصور الصحافي مثلاً أن يلتقط صورة أي حدث، ويوصلها إلى أي مكان في العالم خلال دقائق معدودة، إذ يكفيه أن يفرغ لوحة الذاكرة (الفلاش كارد) في الكمبيوتر من خلال برنامج تحرير الصور (مثل الـPhotoshop). وبعد معالجتها فنياً إذا شاء، مثل تعديل الألوان والضوء ليضفي عليها طابعاً جذاباً، يكفي أن يكون الكمبيوتر متصلاً بخط هاتفي لإيصال الصورة إلى حيث يريد.

إن هذا التطور الكبير في عالم التصوير أوهم الكثيرين أن التصوير الرقمي سيلغي التصوير التقليدي، إلا أن الأمر لا يبدو صحيحاً من وجهة نظرنا على الأقل، فالتصوير التقليدي سيبقى أفضل وسيلة لإبداع المصور في مجالات عدة. كما أن استعمال الأفلام الملونة ذات المقاييس الكبيرة في التصوير الإعلاني لا يزال مهماً، ويضفي على الصورة جمالية عالية. ويمكننا دعماً لهذا الرأي أن نشير إلى أن اختراع التصوير بواسطة الفيديو لم يلغ التصوير السينمائي كما اعتقد البعض للوهلة الأولى. وإلى ذلك نضيف أن المعارض الكبرى للتصوير الفوتوغرافي لا تزال حتى يومنا هذا ترفض اشتراك الصور الرقمية في معرض فوتوغرافي إلى جانب الصور التقليدية، أو إدخالها في منافسة معها.

باختصار، تكمن قيمة التصوير الرقمي، حسبما وصل إليه من تطور حتى يومنا هذا على الأقل، في استعمالاته الصحافية. فقد ساعد الصحافي على اختزال الوقت، وخفّف عليه حمل المعدات الثقيلة، وأراحه من الغرفة السوداء وروائح مواد التحميض... وفيما عدا ذلك، ما تزال آلة التصوير التقليدية على مكانتها القديمة، لا تشعر حتى بخطر المنافسة من الاختراع الجديد، إلا إذا استثنينا الجانب التجاري طبعاً.

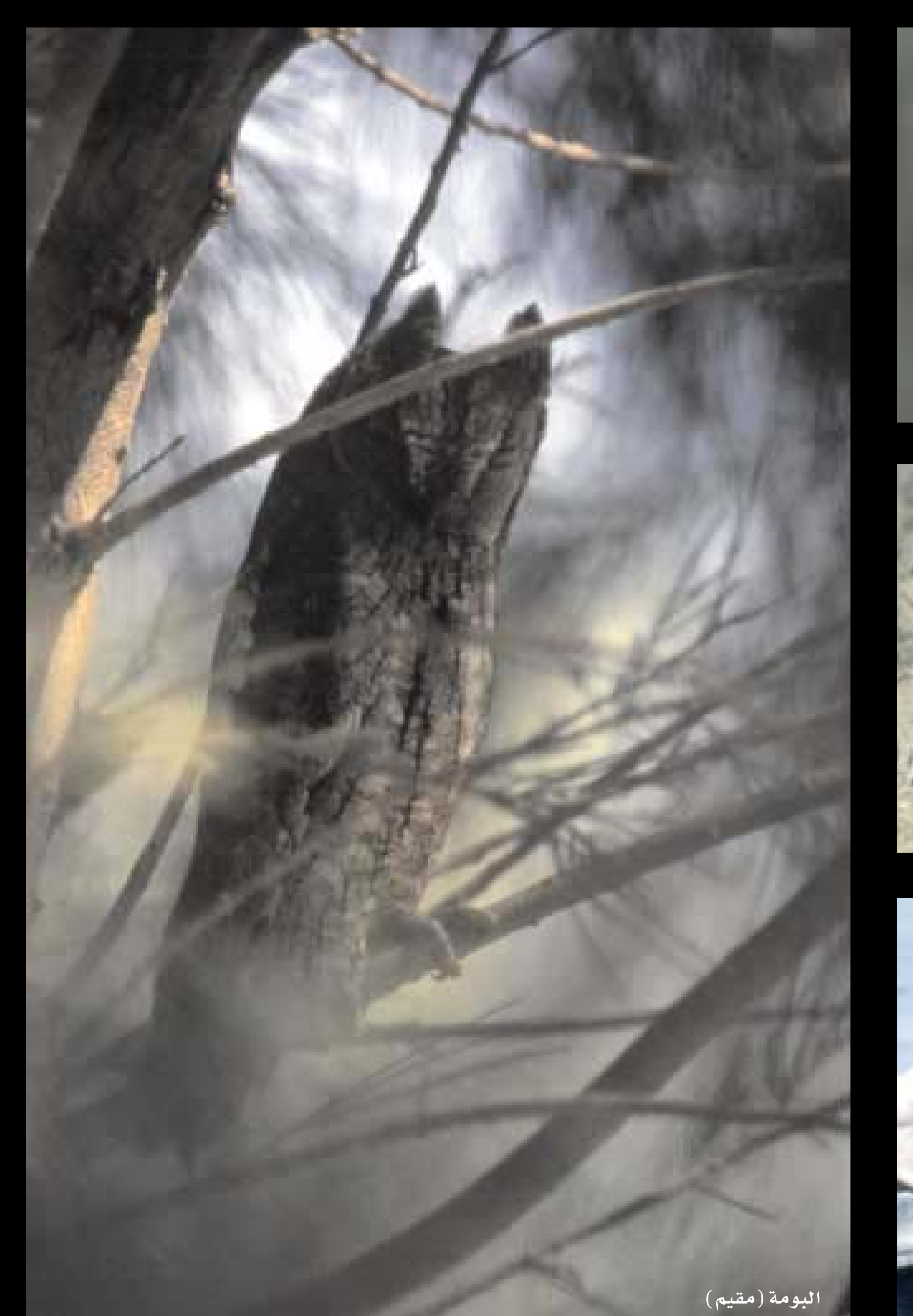
جمال السعيدي
نقيب المصورين الصحافيين في لبنان

طيور الشرقية
وطِأت سهلاً.. وبحراً

بعض طيور الشرقية من سكانها الأصليين.. وبعضها ضيوف، يرودون شطآنها.. يمرون بالجزيرة العربية، خلال هجرتهم الموسمية إلى أفريقيا ذهاباً ومنها عودة. المتجول في بر المملكة وبحرها تفاجئه غزارة هذه الطيور وتنوعها وانسجامها مع هذا الفضاء الصحراوي وطقسه الجاف.



اليمامة (مقيم)


البومة (مقيم)


الشقراق (موسمي)

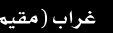

الدقناش القطبي (موسمي)


الغاق الكبير (موسمي)

الوروار (موسمي)


الهدهد (مقيم)


- الصور من أرشيف أرامكو السعودية والمحترف السعودي



غراب (مقيم)

النحام (موسمي)

البلشون الأبيض الكبير (موسمي)


النورس (موسمي)

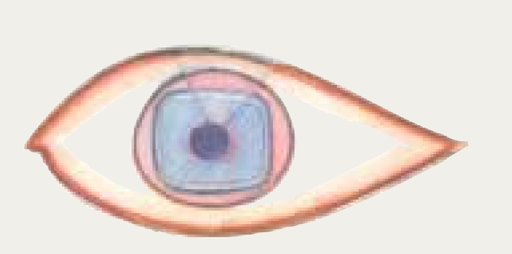


النحام (موسمي)

..ومع مرور الوقت، يصبح عالم الشاشة هو العالم الحقيقي الوحيد والعالم خارجها هو العالم الثانوي والعرضي

مَسُّ الشاشة

..وفي هذه الأيام أكثر من أي أيام خلت تتسمر عيوننا على الشاشات.. وأينما توجهنا في البيت أو المكتب أو السيارة. إنه عصر الشاشة المضيئة. عيوننا على شاشة التلفزيون وعلى شاشة الكومبيوتر وعلى شاشة الجوال بل حتى على شاشات القيادة. شاشات شاشات شاشات.



ولكثرة ما تتعرض عيوننا لهذه الشاشات يتكون لدينا إحساس بحرقة خفيفة على سطح العين، نتعودها بل ونكاد ندمنها. وكأننا أصبحنا فراشات يجذبها نور المصباح ولا تستطيع منه فكاكاً. ويصبح النظر إلى صفحة غير مشعة، مثل صفحة كتاب أو مجلة، باهتاً وغير جذاب. إننا نتوق إلى الشعاع الوهاج يدغدغ أطراف العين، بل وكأن بؤبؤ العين سوف يتحول من شكله الدائري إلى شكل الشاشة مع مرور الزمن.

وإذ يكثر هذه الأيام الحديث عن أن الكتاب الإلكتروني سيحل محل الكتاب المطبوع، نرى أننا في الحقيقة في منتصف الطريق بين هذا وذاك. وقد ضعف شغفنا بقراءة الكتاب المطبوع، إلا أننا لا نتصور من ناحية أخرى أننا سوف نقرأ رواية أو كتاباً على سطح الشاشة المضيئة، فهذه للمتابعة الإخبارية أو التسلية أو العمل. أما المطالعة فأمرها يختلف تماماً ومتعتها لها طعم آخر.. ولو أننا لم نعد نمارسها كما كنا نفعل سابقاً. فقدنا هذا ولم نكسب ذاك.

لكن فقدان متعة النظر إلى غير الشاشة المضيئة قد يتعدى حتى موضوع القراءة إلى كل أنواع النظر. إن العيش لساعات طويلة كل يوم صباحاً ومساءً مع هذه الشاشة قد يفقدنا بمرور الوقت متعة مشاهدة أي شيء خارجها، ويصبح ما نراه عليها هو كل ما نراه ونُعجب ونتأثر به: الصور والبرامج والأفكار والناس وحتى الطبيعة.

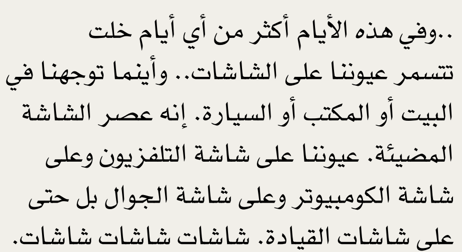
ومع الوقت، لا نفقد الرغبة في القراءة على الورق فحسب، بل أيضاً في مشاهدة الطبيعة في البر والبحر. يصبح عالم الشاشة هو العالم الحقيقي الوحيد والعالم خارجها هو العالم الثانوي والعرضي. ويصبح شخصاً على الانترنت حقيقياً أكثر من ذلك الذي يوجد معك في الغرفة، أكان صديقاً أم أخاً أم زميلاً.

علينا أن نستيقظ من مس الشاشة.. ونتطلع من النافذة. فالشجرة الخضراء والسماء الزرقاء والوجه المليح هناك.

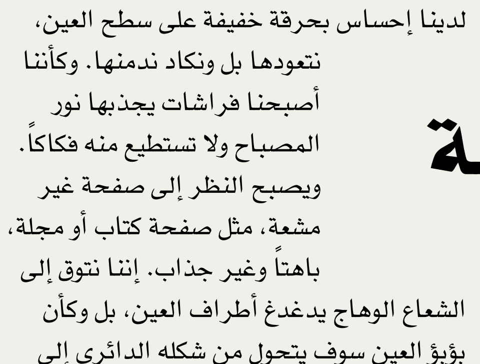
كميل حوا



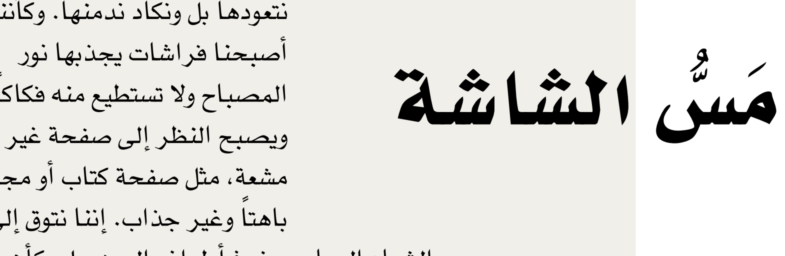
غراب (مقيم)



نورس (موسمي)



الوروار (موسمي)



البلشون الرمادي (موسمي)

لا تمتلك وأنت تواكب جموع المشاة، لأهداف صحيّة، في ساعات الصباح الأولى إلا أن تلاحظ الراحة والانشراح على البعض، والقنوط والإرهاق على البعض الآخر.. مما يدفعنا إلى السؤال عما إذا كانت ممارسة هذه الرياضة هي صحيحة دائماً بدون أي شروط؟
الدكتور أحمد مغربي*، كجميع الأطباء، يوقن بأن الرياضة ضرورية وصحية، ولكنه نبَّه إلى بعض الجوانب السلبية التي لا بدّ من الالتفات إليها.

هل ممارسة الرياضة دائماً صحة؟

هاجس الرشاقة

هناك من يلفت النظر إلى ظاهرة تلاحظ بسهولة في عدد كبير من الدول العربية، وهي أن الاهتمام العام بالرشاقة وصل إلى ذروة غير مسبوقة. ويتعلق الأمر بأجيال الشباب، من كلا الجنسين. وفي قول شديد العمومية، يمكن المخاطرة بالقول أن النساء العربيات يبدو وكأنهن «اكتشفن»، فجأة، أن لهن أجساداً. ويظهرن في صورة من يثابر على ممارسة الرياضة، كوسيلة لا غنى عنها للحفاظ على وزن منضبط ورشاقة مفترضة. ولعب هذا الميل إلى الرشاقة، أو بالأحرى الولع العام بالجسد الرشيق، لعبته مع الرياضة، فبعد أن كانت صورة الرياضة محصورة في أجسام اللاعبين المحترفين، أو درساً معزولاً في المدرسة، صارت جزءاً من الحياة اليومية للناس. وبدءاً من شاشات التلفزة وصولاً إلى أحاديث الفنانين والمشاهير والقادة السياسيين، تظهر الرياضة باعتبارها شيئاً ضرورياً لا غنى عنه.

يبدو وكأن النساء العربيات اكتشفن فجأة أن لهن أجساداً

وفي المقلب الآخر من هذه الصورة عينها، ثمة معاناة لا تطاق: هوس بالصعود والهبوط إلى الميزان، واضطراب وقلق مع كل تحرك للرقم (الوزن)، خصوصاً إذا اتجه نحو الزيادة. هناك نحول وضمور وفقدان طاقة، وحزن يظلل الأعين والوجوه، ونوبات بكاء وكآبة. من لا يعرف أن الليدي ديانا كانت صريعة فترات الجوع القهري الممزوجة بنوبات الأكل الشره؟ هل خطر لأحدنا أن يسأل إذا ما كان أمراً مشابهاً يحدث لزوجته أو أخته أو ابنته؟

الرشاقة ومساوئ الرياضة والاضطراب النفسي، أي خيط يصل بينها في أجساد شباب العرب في مستهل القرن 21؟

ترى الباحثة الأمريكية تابي شافوس، مؤلفة كتاب «المرأة النحيلة» The Thin Women الذي صدر في العام 2000م، أن ظاهرة الإقبال على الجسد النحيل يجب أن تفهم من منظور نفسي - اجتماعي - بيولوجي، وليس كمجرد موضوع جسماني أو طبي محض. وتتنبه إلى أن ما هو على المحك ليس السعي الفردي إلى إنقاص بضعة كيلوغرامات زائدة، أو إنقاص قياس الثوب بضعة سنتيمترات. ولفهم الطوابير المهرولة والمتعرّقة، التي يثابر قسم غير قليل منها على هذا الجهد من دون مردود فعلي، يجدر وضع الأمور ضمن ذلك المنظور. وترجح شافوس أن الأمر يتعلق بالبحث عن «جسد ما» شديد الحضور، بحيث يستدرج كل هذا الصخب عن وصفات الطعام وخفض الوزن، وسيل الأحاديث عن الوزن، وبرامج التلفزيون عن الرياضة في المنزل والنادي، والهوس بعروض الأزياء وعارضاته، والاختصاصيين المستضافين بلا نهاية للحديث عن القدّ الممشوق، وسيول الكتب والمقالات عن الرشاقة وما إلى ذلك. لكن إلى أي مدى تعرف النساء معلومات طبية كافية قبل بدء اللعبة مع الجسد وتوازناته الحساسة؟ وما الذي يُعطى لهن من معلومات عن عمل الجسد وعلاقته بالوزن؟ وما الهدف الذي يسعين إليه فعلاً، جسد على نسق خيال الإعلام العام، أم جسم صحيح ومتوازن؟

الحال أن ما هو «جسم سليم» ليس شيئاً مطلقاً، وإنما هو متعلق بنظرة كل مجتمع، بما في ذلك العلماء والأطباء، عما يجب أن يكوّنه الجسد. ومن هنا تصبح «الرشاقة» مفهوماً مركباً، يستمد مكوناته من مصادر عدة، تبدأ بالتلفزيون ولا تنتهي بالسينما والإنترنت. ولعلها نماذج من الأماكن اليومية التي تجيء منها تلك الصورة الخفية والمتخيلة لمثال ما، كأنه تمثال، والتي تسخّر العلم لصنع صنم. والأرجح أن الحديث عن الطب والعلم، هو مجرد وسيلة تبرير. تلك هي الخلاصات التي تشدد عليها شافوس، والتي تنادي، أيضاً، بضرورة تحرر الشباب، وخصوصاً المرأة من أسر صنم الجسد التكنولوجي الذي يأسر العقول في القرن 21. وتلك رسالة برسم من يريد في دنيا العرب.
انظر الإطار الخاص بالأنوريكسيا بعنوان «النفس المضطربة أكلاً وجوعاً».

الجمال وغياب «الطبيب الناصح»

ما الذي يدل عليه انتشار جراحات التجميل، وإزالة البثور والندوب، وحقن الجلد بالسيليكون وحشوه في الصدر، وعمليات زرع الشعر وإزالته بالليزر، وتصحيح الأنف وحقن سم «بوتكسين»، المصنوع من مادة «بوتيلونيوم» Boutulinum، وهو سم محرم دولياً ومن أسلحة الدمار الشامل، لإزالة تجاعيد

* اختصاصي في طب النفس الاجتماعي

المحترف السعودي

الوجه، وما لا ينتهي مما يشار إليه باسم «جراحة تجميلية»؟ إنها لعبة لا تخلو من الخطر بين العلم الذي يستجيب لمتطلبات سوق قوية، وبين جمهور بات مهووساً بالجسد الرشيق ذي المظهر الشاب. في هذا السياق، تبدو ممارسة الرياضة وكأنها وسيلة لإعلان سعي الفرد، أنثى كان أم ذكراً، إلى امتلاك هذا الجسد. ولأنه أمر يرتبط بمفهوم الحداثة المعاصرة، ويأتي من وسائلها في الإعلام، مثل الفضائيات والسينما والكومبيوتر، فالأرجح أن طوابير المهرولين على كورنيشات المدن العربية يحاولون الإعلان عن الانتماء إلى العالم المعاصر ولغته في الأجساد.

ماذا يحدث بعد انتهاء زمن الاحتفال حيث يحل أبطال محل أبطال؟

أين هو موقع العلم والطب في هذه العملية كلها؟ ربما تصلح جراحة ندوب الوجه نموذجاً عن هذا الأمر، ففي العام 2001م، نشرت دراسة عن «مركز خدمة المعلومات عن الندوب» في بريطانيا (والمعلوم أن 5.6 مليون شخص انجليزي يعانون من هذه الحالة)، دلت على أن تسعين في المئة ممن يعانون ندوباً اعتبروها عبئاً نفسياً، ما دل على عدم قدرتهم على تقبل صورة الذات Self Image، والتي تلعب دوراً مهماً في تقويم الذات Self Esteem. وأشارت أغلبية ساحقة إلى أن الندوب تثير مشاعر مثل الإحراج وفقدان الثقة بالذات والاكتئاب والقلق وغيرها من الاضطرابات النفسية. وأعلنت نسبة دالة (31 في المئة) عن صعوبة في نسج علاقة حميمة مع الآخر، ومالت الأغلبية (39 في المئة) إلى الإعراب عن تزعزعها حيال المشكلة، مع إحساسها بأن المحيط الاجتماعي لا يدعمها، ما يؤشر على تفشي الوله بالجمال. والطريف أن الدراسة بيّنت إجماعاً تاماً على أن دور الطبيب اقتصر على مناقشة الوسائل والمفاضلة بينها. ولم يقل أي طبيب لأي مريض أن لا يجري جراحة لإزالة الندوب مهما كان حالها ومدى تأثيرها على صاحبها. ويدل الأمر على انحسار نظرة الطب لتقتصر على محاولة اللحاق بركب الذائقة الاجتماعية وهواها. لقد غاب دور «الطبيب الناصح» كلياً لمصلحة حضور «الطبيب المعالج».

تقارير ضد الرياضة

إذا كان البعض يهرب من الأنوريكسيا إلى الرياضة، ويجدّ في الدأب على التدريب لساعات طويلة في اليوم أو الأسبوع، فإن درب الرياضة لا يخلو من الأشواك غير المتوقعة. وقبل التسليم بنصائح الانهماك في التدريب، التي لا تتوقف عن الانسياب من برامج الرياضة على القنوات العربية والأجنبية، ربما يجدر التفكير قليلاً في الأمر كله.

لعلّ أول ما شوّه صورة الرياضة هو تعاطي المنشطات، الذي يُحدث تغييراً في الوظائف الهرمونية والعصبية للجسم. والثاني هو ظاهرة الموت المفاجئ للرياضي Sudden Athletes Death. وثمة من يربط بين التدريب المكثف، بفعل روح الرياضة، وبين ارتفاع معدل الحوادث، مثل العراك والشجار أو اصطدام السيارة إثر قيادة سريعة، وكذلك الإفراط في تناول الكحول والمخدرات، إضافة إلى الاضطراب في عمل وظائف الجهاز الهضمي. والأشد إدهاشاً هو قدرتها على التمهيد إلى تعاطي مواد الكيف والتعوّد. وعندما يتوقف «مدمن الرياضة» عن التدريب. فإنه يغدو ضحية سهلة للإدمان الكحولي أو سواه. كيف تحدث كل تلك الأمور ؟

قبل فترة وجيزة فاجأت وزارة الشباب في فرنسا الأوساط العلمية والرياضية بنشرها تقريراً موسعاً عن الآثار النفسية البعيدة المدى للرياضة. وركز التقرير على أن نسبة التعوّد على المواد المؤذية، مثل الحشيش والماريوانا والكحول وغيرها، ترتفع بشكل لافت في صفوف ممارسي الرياضة ومحترفيها. وينطبق الوصف على الميل إلى العنف والسلوك المغامر إلى حد الاستهتار.

ولندخل إلى التفاصيل ونسأل: ما الذي يحفز الرياضي ليبذل كل هذا الجهد والعرق؟ لنفكر بالأمر قليلاً. جمع من الشباب يبذل العرق ويتحمل الآلام من أجل ماذا؟ ليس الربح المادي هو الهدف دائماً، ثمة أشياء «معنوية» يعرفها كل الرياضيين: تلك الصورة الباهرة للرياضي المنتصر،ذلك الذي يحقق نفسه عبر المضمار أو القفز أوالملاكمة أوغيرها. تسكن في الأخيلة لحظة براقة، لحظة الفوز. إنها تجعل الأدرينالين يُضخ ضخاً إلى الدماغ، وفي مراكز النشوة تسكب مواد عصبية يعرفها الطب جيداً، لتعطي ذلك الشعور المفعم بالنشوة. تمتلئ أعصاب الدماغ بالدوبامين Dopamin، وتشبع مناطق حساسة من المخ بالسيروتونين Serotonion وعلى الأخص تتهيج مراكز النشوة التي برهن العلم علي وجودها في تجارب رائدة وثقها البروفسور أ. دبليو ليشمان، الاختصاصي الأمريكي في علم النفس العصبي Neurobiology والسؤال هو: ماذا بعد خُبُوّ الضياء الساطع، وخمود الفوران المدوِّخ؟ ما الذي يحدث بعد انتهاء زمان الاحتفالات؟ ماذا بعد أن ينطفئ التوهج، ويحل أبطال محل أبطال؟

ما الذي يجري في دماغ البطل السابق، بعد أن اعتادت مراكز مخه على التشبع من المواد التي تهز الجسم هزاً؟ ألا يبدو منطقياً أنه سيسعى إلى الحصول على تلك اللذة الخفية، من مواد الكيف المتعددة؟ هاهنا، ربما لا يبدو السعي مكشوفاً أو مفهوماً من قبل الرياضي نفسه. يكفي أن تنصت إلى من مارس الرياضة مدة من الزمن ثم تركها، لتسمع عبارات تنم عن السأم والفراغ والتقلقل وعدم الصبر، وكل تلك أبواب مشرعة تغري بالبحث عن.... البدائل.

وبحسب التقرير المشار إليه آنفاً تبدأ تلك البدائل بالأشياء الخفيفة مثل السيجارة أو قيادة السيارة بسرعة لفترة قصيرة أو الانغماس في التلذذ بأنواع المأكل، وتمتد إلى كل ما يصنف ضمن مواد الكيف الممنوعة. إنه تغيير في نمط الحياة نفسها، وفي طريقة عيش لحظات العمر.

ويرى بعض الاختصاصيين في ردِّ فعل الإنسان على الرياضة نموذجاً مثيراً: كيف يتحمل الجسم ما تسبب التدريب به من الآلام؟ إن الدماغ يفرز مواد مسكنة للآلام تسمى انكيفالين.

والمفارقة أنه يعمل على الدماغ نفسه، أي أن الدماغ يفرز مواد تخدر آلامه التي تثيرها الرياضة. الأكثر إثارة هو أن تركيب الانكيفالين وخواصه الكيماوية تشابه المورفين، أقوى مخدر معروف على الأرض. والمعلوم أن المورفين لا يكتفي بتسكين الآلام وإنما يعطي شعوراً قوياً بالراحة والنشوة، وهو ما يعطيه خواصه الإدمانية المعروفة. هل إن هذا التشابه هو المدخل إلى ما تسببه الرياضة من آثار نفسية؟ من المبكر الإجابة على هذا السؤال. في المعهد الوطني للأبحاث الصحية والطبية، واختصاراً Inserm، أو انسيرم، يحاول الباحث الفرنسي ميشيل هامون الإجابة عن السؤال عن رد فعل أعصاب الدماغ عند التوقف عن الرياضة، وهل إنه يشبه ما يحدث من ردود فعل لدى متعودي تناول المواد المكيِّفة؟ الفرنسية ماري شوكيه اختصاصية الطب النفسي قادت أبحاث وزارة الشباب في فرنسا، التي دعمتها دول الاتحاد الاوروبي، بالمشاركة فيها. وشملت الأبحاث، التي انطلقت في العام 1999م عيّنة واسعة بلغت عشرات الآلاف من الشباب، من كلا الجنسين. ولاحظت شوكيه أن الرياضة الخفيفة تعطي نتائج إيجابية على الصعيد النفسي، فهي تحسن النوم والشهية، وتخفف من الميل إلى تناول الكحول. أما الذين يمارسون الرياضة، بشراهة، أي الذين ينغمسون فيها، فإنهم أكثر ميلاً إلى تناول الكحول والتدخين والدخول في مغامرات مثيرة وما إلى ذلك. وانطبق هذا الأمر على ستين في المئة من الشباب الذين يمارسون الرياضة. وباختصار، فإن جرعات صغيرة من الرياضة تحمي الإنسان من السلوك المغامر في



أشكاله المتعددة، والإكثار منها يؤدي إلى ضعف المقاومة النفسية لنداءات اللذة.

وبحسب الأبحاث عينها، فإنه يوجد عموماً نوعان من الناس تجاه الخبرات المثيرة والقوية، بما في ذلك الرغبات النفسية القوية، النوع الأول يفضل الركون إلى السكون والخمود، والثاني يستلذ الإثارة النفسية المتأججة وما يرافقها من تدفق في المشاعر، وربما من كيمياء الأعصاب. ويحمل بحث آخر لشوكييه عنواناً لا يخلو من الدلالة: «سعاة المشاعر العالية» High Sensation Seekers وفي سياق مشابه، قاد بحث لفريق نفسي- اجتماعي من جامعة كنتاكي في الولايات المتحدة، إلى نتيجة مشابهة.

وفي دراسة نشرت في العام 2000م، نبّه الفريق إلى أن الساعين إلى المشاعر العالية يتميزون بأمرين هما تفضيل المغامرة الفاعلة، والميل إلى الدخول في الصراع التنافسي، مما يعزّز الملاحظة عن الأثر الإشباعي، من الناحية النفسية، للرياضة والفوز. وتشدد الفرنسية شوكييه على أن الإنسان ليس مجرد كيمياء ولا محض أحاسيس، رغم أهمية كلا الأمرين، وأهم ما يميزه هو الذكاء والوعي والقدرة على التواصل. وتخلص إلى أن الميل بين الأطباء النفسيين هو لصالح تبني نظرة إيجابية في العلاقة بين الرياضة والصحة الجسدية والنفسية... والهدف من الأبحاث عن الآثار النفسية المضرة للرياضة هو محاولة الوصول إلى وضع سياسة تتبنى أهدافاً تخدم الإنسان نفسه، وليس مجرد الفوز أو إحراز الأرقام أو ممارسة الرياضة.

وتلخص شوكييه فكرتها الرئيسة في ضرورة تبني شعار «من أجل رياضة تعمل لمصلحة الإنسان». ويبقى أن سبل التوصل إلى مثل هذه الرياضة هي رهن بجهود العلماء. إذاً، فالكرة لازالت في ملعب العلم. وترى عالمة الاجتماع الفرنسية سيلفان اكاتياس، من «المؤسسة الوطنية للبحوث العلمية»، أن الجسد، في مواظبته على الرياضة، يظهر وكأنه آلة أو أداة، في نظر صاحبه. وضمن هذه النظرة تصبح الإصابات وكأنها مجرد خلل في عمل الآلة، وليس باعتبارها مؤشراً على الحال المعنوية والنفسية والحياة اليومية للفرد. وتلاحظ بذكاء أن الآثار النفسية السلبية للرياضة لم تنل أبداً نصيباً كافياً من الاهتمام: لا في عمل الدارسين ولا في أذهان الناس.

رأي طبي





الأنوريكسيا:
النفس المضطربة أكلاً وجوعاً

يميل الرأي بين الاختصاصيين النفسانيين إلى اعتبار الأنوريكسيا من الاضطرابات النفسية في الأكل. وتحتل صورة الجسم في مخيلة المصاب، أو بالأحرى المصابة نظراً لانتشاره الكبير بين الإناث، المركز في هذا الاضطراب. إنها لا ترى أبداً أن جسدها قد وصل إلى «الرشاقة» التي تتيه بأحلامها. الحل؟ الريجيم القاسي، والمزيد منه. في البداية الامتناع عن المأكولات الدسمة، ثم الأقل دسماً ثم النشويات ثم كل ما يحتوي على سعرات حرارية عالية، ثم الأقل فالأقل، وهكذا وفي قسم كبير جداً من الحالات تنقلب الأمور فجأة من النقيض إلى النقيض. تندفع الشابة إلى الأكل بشراهة مزرية. ويلي ذلك تأنيب للذات، ومرارة تدفع ببعضهن إلى إرغام أنفسهن على قيء ما أكلنه. يمكن الإشارة إلى ذلك باسم «النوبات المرتدة من الأكل» Binge Eating. وتزيد هذه النوبات من حدة تشوه صورة الجسد لدى المصابة بالأنوريكسيا، فترتد إلى ريجيم قاس وتبدأ الدائرة المغلقة من جديد.

في ربيع العام 2000م نشرت مجلة «رابطة اختصاصيي التغذية الأمريكيين» بحثاً للبروفيسور أوراوين تروكي عن علاقة «مؤشر كتلة الجسم» IBM، وبين التغيير في تركيب أجساد المراهقات المصابات بداء الأنوريكسيا، وأكدت الدراسة أن المصابات يفقدن طاقة أجسادهن، وأن سعيهن الحثيث إلى جسد أشد ضموراً باستمرار، يؤدي إلى فقدان الكتل الشحمية وغير الشحمية على حد سواء. ونبهت الدراسة كذلك إلى ما يصيب جهاز المناعة لديهن من ضعف، إضافة إلى زيادة نسبة إصابتهن بالكآبة، سواء في مرحلة الأنوركسيا أو في مراحل تالية من العمر. وتدل الأبحاث النفسية - الاجتماعية على اتساع ظاهرة الأنوريكسيا باضطراد. فبعد أن كانت قصراً على مراهقات الغرب، انتشرت في كل دول العالم. ومن المؤشرات على هذا الانتشار، زيادة طلب أدوية الريجيم وإنقاص الوزن.

وشهد العام 1999م سحب دواءين من السوق طالما حازا شهرة دولية في مجال الريجيم، وهما «ريدوكس»Redux و«فين/فيين» Fen/Phenn. وغني عن القول أنهما استعملا من قبل «الملايين» في العالم وتسببا بكمٍّ لا يعلم به إلا الله من الأضرار قبل أن يلغيا.

ويثور حالياً نقاش حادّ عن الأدوية التي ما زالت مجازة كعلاج للبدانة مثل «ريدوكتيل»، الذي يؤثر على أعصاب الدماغ، و«انيكال» الذي يمتص الدهون من الطعام، مما يترك آثاراً جانبية مهمة في مجال نقص بعض أنواع الفيتامين والتسبب بالإسهال الدهني وما إلى ذلك.

كل يوم تتطور نظرتنا إلى السلامة المرورية في محاولة لمحاصرة مخاطر السير والتخفيف من آثارها. وتبيّن المقالة التالية وجود مصادر خطر لم نلتفت إليها سابقاً قد تصيب، لا قدّر الله، أحد الذين يراعون قواعد السلامة المرورية المعروفة...

في سيارتك أخطار خفية..

من مأمنه يؤتى الحذر..!

ركب السبعة سيارتهم السوبربان، وانطلقوا عائدين إلى قريتهم «الخويلدية» التابعة لمحافظة القطيف بعد أسبوع عمل كامل، أمضوه في بساتين النخيل بمحافظة الأحساء.. وفي الطريق وقع حادث الانقلاب المفاجئ الذي أودى بحياة اثنين، وأصاب ثلاثة إصابات بليغة.

قد يكون إطار السيارة الذي انفجر فجأة سبباً مباشراً في الحادث، وقد تكون السرعة، وقد يكون الخطأ البشري سبباً آخر.. لكن الأدوات الحادة التي كانت موجودة داخل مقصورة السيارة هي أخطر أسباب هذه النتيجة المؤلمة.

هكذا، وفي مشهد لا يمكن حتى للعين التقاطه، تطايرت المناجل والسكاكين والأعمدة وبقية أدوات الفلاحة وعدد العمل داخل المقصورة، لتضرب في الرؤوس والوجوه والصدور والبطون، وينتهي الأمر إلى فاجعة أصابت سبعة شُبّان كادحين.

وقعت هذه الحادثة قبل أعوام، وقد يحدث مثلها كل يوم، وإن اختلفت التفاصيل. لكن السيارة، أي سيارة، مهما كانت مأمونة، ومجهزة، ومهما كان السائق والركاب حذرين ومحتاطين، فإنهم قد يغفلون عن أدوات صديقة يمكن لها أن تنقض عليهم كسلاح قاتل وقت وقوع الحادث.

في الولايات المتحدة اكتشف محقق مروري سبباً غريباً في قتل سائق سيارة صغيرة اصطدم بشاحنة ضخمة.. الشاحنة بريئة من قتله. القاتل فأس صغيرة كانت موجودة وراء المقاعد الخلفية.

كل شيء داخل مقصورة السيارة يمكن أن يكون سلاحاً قاتلاً: علبة المناديل، العلب الفارغة، أشرطة الفيديو، الكتب، ناهيك عن الأدوات الحادة. وقبل هذه الأشياء هناك الركاب الذين لا يربطون حزام الأمان، فهؤلاء يمكن أن يكونوا قتلة أصدقاء أيضاً.

وهناك دراسة أجرتها شركة تأمين في الولايات المتحدة شملت 179 ألف طفل أصيبوا في حوادث. هذه الدراسة رصدت أكثر من 12 ألف حالة أصيبوا بجروح من جراء شيء ما داخل السيارة، ومنهم أكثر من 3 آلاف صدمتهم أشياء فالتة أو أشخاص لم يربطوا حزام الأمان.

وتبيّن الدراسات في السويد وبريطانيا واليابان أن الركاب غير المحزّمين في مقعد السيارة الخلفي يزيدون من احتمالات خطر إصابة غيرهم، أو حتى قتلهم. وفي دراسة أخرى لسلطة الطرق السريعة في الولايات المتحدة خلصت الإحصاءات إلى وجود إشارات خطر أكبر، فمن بين 36 ألف حادث تصادم وجهاً لوجه توفي سائق واحد من كل 68 حادثاً، لأن السائق كان محزماً وبقية الركاب غير محزمين، في حين انخفض هذا المعدل إلى وفاة سائق واحد بين كل 330 حادثاً لأن السائق والركاب كانوا محزّمين. وهذا يشير إلى أن الراكب غير المحزّم سيكون قاتلاً رغماً عنه.

وتروي الأحداث المشابهة قصصاً أكثر غرابة، ففي لاس فيغاس ركب أب سيارته برفقة طفلته ذات الشهر السادس، فربطها بحزام الأمان وهو لم يفعل. وفي الطريق فقد السيطرة على السيارة فقذفت به الحادثة إلى خارج السيارة فتوفي، أما الطفلة فقد أصيبت بكسر في جمجمتها بعد أن انقذفت قطعة معدنية كانت موجودة في مؤخرة السيارة! قبل الحادث كانت هذه القطعة المعدنية صديقة، لكنها تحولت إلى عدو فجأة بمجرد اضطراب توازن السيارة.

إذن ما بالنا بالأدوات، أي أدوات؟ وعربات الأطفال؟ والأجهزة الكهربائية؟ وبقية ما يصحبنا من أجهزة يمكن أن تتحول إلى أداة قتل غير متوقعة!

سلامة الرأي

في السلامة المرورية

لقِّنهُ طفلاً وحاوِره شاباً...!!

تهتم به طفلاً، فتزوده بأولى تعاليم السلامة، وتملي عليه التوجيهات الأبوية، وتقول له بحنو: «استخدم الرصيف ولا تسر وسط الشارع»، «اربط حزام الأمان»، «لا تقطع الطريق إلا إذا كان خالياً من السيارات»، «لا تلعب في الشارع»..!

وقد تُطور من ثقافة السلامة لديه، فيعرف عن طريقك معاني بعض إشارات المرور ومخاطر الحوادث، وعواقب السرعة، وغيرها من المعلومات الأولية. وأكثر الآباء يفكرون على هذا النحو، ويقدمون لأطفالهم وجبات تربوية تغذي فيهم الوعي المروري السليم.

وصاية هشة..!

ولكن حين يكبر طفلك ويبلغ مرحلة القدرة على قيادة السيارة، فإنه قد لا يبدي الاستجابة ذاتها للتعلم منك والامتثال إلى إملاءاتك.. فشاب الثامنة عشرة يرى نفسه رجلاً ناضجاً، متمكناً من هذه المركبة التي تثيره وتحرض رغباته المراهقة في إثبات جدارته كسائق ماهر.

ونتيجة لهذا كله يمارس السرعة المخيفة، ويغامر في استخدام السيارة في الساحات والشوارع بـ «التفحيط»، والاستعراض المجنون، ومرافقة الأصدقاء في المضي إلى أقصى حد من المخاطرة، فضلاً عن إهماله المتعمد لقواعد السلامة الأخرى وتعديه على إشارات المرور وأصول القيادة الطبيعية.

إذن ذلك الطفل الذي كان يربط حزام الأمان ليرضيك لم يعد يهتم أصلاً بهذا الحزام. وذلك الصغير الذي كان ينبهك إلى الإشارات الحمراء والصفراء في التقاطعات أصبح الأمر لديه سخيفاً حين يجد نفسه ملزماً بالتطبيق.

ورطة الشباب

الأضواء الحمراء تقول باختصار: إن الشباب متورطون أكثر من غيرهم في رفع معدلات الحوادث المرورية في العالم، وبصورة أخص في المملكة العربية السعودية. في الولايات المتحدة، تقول الإحصائيات: إن حوادث المرور هي السبب الرئيس في وفاة الأشخاص من عمر 16 إلى 20. وهي نفسها السبب الرئيس في الإعاقة وإصابة العمود الفقري لدى الشباب. والشباب يتفوقون على غيرهم بـ 20 ضعفاً في ارتكاب الحوادث. وفي المملكة تشير المعلومات إلى أن: صيف سنة 2002 شهد 700 حادث مروري يومياً، للشباب النصيب الأكبر منها. المملكة تقع على رأس قائمة الدول ذات المعدل الأعلى في حوادث المرور، وغالبية الضحايا والمتسببين هم من الشباب.

ماذا يعني ذلك..؟

يعني ببساطة، أن القيم المرورية التي يزرعها الآباء في نفوس أبنائهم (قد) تفقد فاعليتها في التطبيق، لأن الآباء يتوقفون عن سقي هذه القيم، فتذبل، وتذوي، وتنتهي .. وحين يبلغ الشاب مرحلة قيادة السيارة فإنه يبدأ من رغباته، لا من ثقافته أو تربيته. ويعني أيضاً أن الرقابة الأسرية لا تصل حد التأثير الإيجابي، بل إن التساهل هو الذي يبدو فاعلاً أكثر، وأولى صور التساهل هي: الاستجابة لرغبات الأبناء بشراء السيارات الرياضية، إنابة الأبناء في مهمات المواصلات الأسرية دون متابعة سلوكهم المروري، الثقة المطلقة التي يمنحها الآباء للأبناء في تحمّل هذه المسؤولية.

ما هو الحل؟

الحل يكمن في فهم أن القيادة المسؤولة تنبني على وعي مسؤول، والوعي المسؤول شأن تربوي مستمر، ومثلما لقنت ابنك القيم المرورية الأولية طفلاً، فإن عليك الاستمرار في سقي هذه القيم لتستمر وتتحول إلى ثوابت تنعكس على السلوك، بواسطة الحوار العفوي في أية صدفة تمر، يكون الحديث حول الأخلاق المرورية مناسباً فيها.

حاوره في أن الانظمة المرورية وضعت لتكون حاجز حماية له ولغيره، كيف تكون السرعة قاتلة، ربط حزام الأمان، الالتزام بالإشارات، التجاوز السليم، مراعاة الطقس السيئ. دعه يفهم أن الطريق ملك لكل الناس ومن حق كل سائق أن يأخذ حقه من هذه الملكية دون أن يتعدى على ملكية الآخرين. دعه يفهم أن تقديم تنازل مروري لتفادي حادث أو مشادة أنبل من العناد.

في زمن يشهد إرباكات عديدة ناجمة عن جهل شعوب العالم بثقافات بعضها البعض، تتخذ مراكز الحوار الثقافي والحضاري ما بين هذه الشعوب أهمية كبرى، لما يناط بها من مسؤوليات على صعيدي التنوير واختصار المسافات ما بين الحضارات المختلفة. مراسلنا ماجد نعمة يحدثنا هنا عن واحد من أبرز هذه المراكز:

معهد العالم العربي في العاصمة الفرنسية، أيقظ ذكرى:

«باريس.. مربط فيلنا»

«باريس مربط خيلنا..» كثيراً ما ترددت هذه المقولة العنترية على ألسنة العرب في حديثهم عن العاصمة الفرنسية، أو من خلال إقامتهم فيها. ولكنّ زوار باريس فوجئوا مؤخراً، وتحديداً بالقرب من «حديقة النبات» الواقعة على الضفة اليمنى لنهر السين، بلوحة عملاقة تغطي كل الواجهة الأمامية لمعهد العالم العربي، وتمثّل حصاناً عربياً أصيلاً كما رُسم في إحدى المنمنمات التقليدية. وكانت هذه اللوحة الرائعة المنتصبة بفخر ووقار إعلاناً عن المعرض الذي نظّمه واحتضنه المعهد بعنوان «الفروسية العربية في فنون الشرق والغرب». ضمّ هذا المعرض مجموعة من أجمل القطع الأثرية والتحف الفنية المتعلقة بالحصان العربي المُعارة من متاحف العالم في أوروبا وأمريكا والوطن العربي. وهو الأول، بهذا الحجم وهذا الطموح، الذي ينظم حول هذا الموضوع. ويكفي لإيضاح ذلك أن نشير إلى أن عدد زائريه خلال ثلاثة أشهر فقط فاق نصف المليون زائر.

إن كان الجيل الحالي من الفرنسيين قد استكشف من خلال هذا المعرض بعض ملامح الفروسية العربية، فإن أجدادهم قد سبقوهم إلى ذلك ميدانياً. وفي هذا المجال يقول فيليب كاردينال أحد كبار المسؤولين عن المعهد: «إنّ الحروب الصليبية كانت في هذا المجال، كما في مجالات عديدة أخرى، سبباً في صدمة ثقافية حقيقية، حيث وجد النبلاء الصليبيون في مواجهتهم فرساناً عرباً ومسلمين يملكون مهارات كبيرة في الكَرّ والفَرّ. وبفضل هذه الحروب، لم يتعلم الأوروبيون من العرب قواعد القتال والفروسية فقط، بل أخذوا أيضاً مفاهيمها وقيمها الأخلاقية مثل الشهامة والشجاعة والكرم واحتقار الغدر والجبن وما إلى ذلك». وها هو معهد العالم العربي يذكّر الفرنسيين وزوارهم من سياح أجانب بعالم الفروسية العربية، ويهمس في آذانهم بما للعرب من فضل عليهم.

بضاعتنا ردّت إلينا. وهذا يقودنا إلى تسليط الضوء على هذه المؤسسة الحضارية الثقافية العاملة بنشاط كبير على تعريف الغرب الأوروبي بالحضارة العربية الإسلامية.

جذوره التاريخية

الواقع أن فكرة تأسيس هذا المعهد ترتبط في شكل ما بطموح تاريخي لدى فرنسا الملكية أولاً، ثم الثورية، فالإمبراطورية، ثم الاستعمارية لاحقاً، فالجمهورية العلمانية حالياً، بالانفتاح على العالم العربي والإسلامي انطلاقاً من الفكرة القائلة بأن هذا العالم يشكل عمقاً حضارياً واستراتيجياً، تستطيع من خلاله تدعيم مواقعها في مواجهة خصومها داخل أوروبا أو ما وراء البحار. وهذا ينطبق على سياسات كل حكام فرنسا التاريخيين، من شارلمان ومراسلاته مع هارون الرشيد إلى نابليون الثالث في تحالفه الشهير مع الخديوي اسماعيل باشا وخوضهما معاً الحرب في المكسيك، مروراً بالصليبيين الذين حكمت ممالكهم مناطق من المشرق العربي لقرنين من الزمن قبل أن يُهزموا أو يندمجوا في شعوب المنطقة، ونابليون الأول الذي راوده حلم بناء إمبراطورية إسلامية انطلاقاً من مصر.

EXPOSITION
DU 26 NOVEMBRE 2002
AU 30 MARS 2003
Chevaux & Cavaliers Arabes
Dans les arts d'Orient et d'Occident

نافذة للدول العربية والإسلامية تعرض من خلالها كنوزها الثقافية والفنية أمام جمهور واسع

وعلى سبيل المثال نشير إلى أن الحملة النابليونية على مصر، والتي يعتبرها بعض المؤرخين، عن حق أو خطأ، بداية النهضة العربية الحديثة، لم تكن مجرد حملة عسكرية، فقد رافق نابليون جيش من العلماء قاموا بأوسع مسح جغرافي وتاريخي وعمراني لمصر، ونشر هذا المسح في عدة مجلدات ضخمة، ابتكرت في سبيل طباعتها آلات خاصة، وكان نشرها حدثاً ثقافياً وعلمياً وتقنياً، دوّت أصداؤه في العالم بأسره آنذاك.

وبعد أن تخلصت فرنسا من إرثها الاستعماري المشين بتحرر الجزائر عام 1962م، بدأت في المرحلة الديغولية تعيد تأسيس سياستها العربية. وبما أن هذا الانفتاح كان يتطلب تأييداً شعبياً لم يكن متوافراً آنذاك، كان لا بد من إنشاء مؤسسة ثقافية طموحة تتوجه إلى الناخب الفرنسي لإقناعه بقدر ما تتوجه إلى المهاجر العربي وعبره إلى الرأي العام العربي لاستمالته.

لم يكن تنفيذ مثل هذا المشروع في البداية سهلاً، خاصة وأنه كان محاطاً بمعارضة شديدة من بعض أطراف الدولة ومن قسم من الرأي العام. ونذكر على سبيل المثال أنه عندما وقع اختيار الأرض المخصصة لبناء المعهد في الدائرة الخامسة عشرة، جوبه هذا الاختيار بموجة من الاحتجاجات الشعبية، مما دفع برئيس بلدية باريس آنذاك جاك شيراك إلى اختيار موقع آخر ملاصق لجامعة «جوسيو» في الحي اللاتيني، وتمرير المشروع على أنه مجرد مؤسسة أكاديمية بحثية، إذ كان كل ما يُذكّر بالعرب والإسلام في نظر معارضي المشروع، مرتبطاً بالتخلف الاجتماعي والبؤس الحضاري.

عندما جوبه اختيار الموقع الأول بمعارضة من الباريسيين تدخل رئيس البلدية آنذاك جاك شيراك لاختيار موقع آخر قرب جامعة «جوسيو»

بطاقة هويته

افتتح معهد العالم العربي في باريس رسمياً في ديسمبر 1987م، ومهمته الأساسية التعريف بالثقافة العربية والمساهمة في انتشارها وتطويرها وتكوين جسر ثقافي حقيقي بين فرنسا والوطن العربي. ورسم المعهد لنفسه ثلاثة أهداف أساسية هي:

- تطوير دراسة العالم العربي والمساهمة في التعرف إليه والتعريف به في فرنسا لغة وحضارة وثقافة.
- تشجيع المبادلات الثقافية والتواصل الحضاري بين فرنسا والوطن العربي في مجالات العلوم والتقنيات الحديثة.
- تمتين العلاقات بين فرنسا وأوروبا من جهة والوطن العربي من جهة أخرى.

وعلى الرغم من أن المعهد يُدار مناصفة بين الدولة الفرنسية والدول العربية عبر مجلس السفراء العرب، فإنه ليس مؤسسة دولية مثل اليونسكو، بل هيئة خاضعة للقانون الفرنسي.

من معروضات المعهد





المعهد في دوره الفريد

أدّت جملة من الأحداث السياسية والعسكرية في العقود الأخيرة إلى انطواء مُدمِّر على الذات على ضفتي البحر الأبيض المتوسط. وفي العام 1991م، سُئل ميشال جوبير أحد أقطاب الديغولية التاريخيين عما بقي من سياسة فرنسا العربية؟ فأجاب: «باربيس روشيشوار».. وقد استحق على هذه الجملة التهكمية جائزة أفضل عبارة سياسية لذلك العام. ولفهم ما كان يقصده نشير إلى أن حي باربيس روشيشوار الباريسي، الذي تقطنه غالبية عربية إسلامية، يكاد يختصر كل مآسي الهجرة العربية الفاشلة في فرنسا من فقر ومتاعب اجتماعية ومهنية وتهميش ثقافي واقتصادي وسياسي.

وفي تلك السنوات كانت الجالية العربية والإسلامية التي تضم نحو ستة ملايين نسمة، تشعر، حتى أولئك الذين حصلوا على الجنسية الفرنسية، أنها ما زالت بعيدة جداً عن الحصول على حقوق المواطنة الكاملة، نظراً للاختلافات الثقافية ما بينها وبين محيطها.

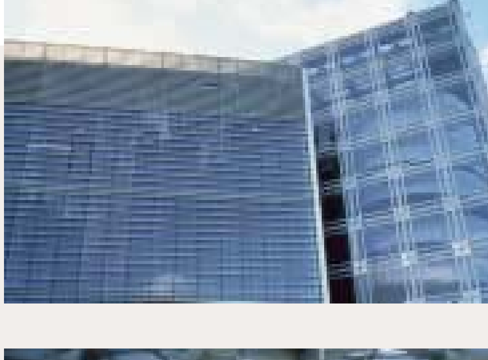
وفي هذا المجال الخطير، لعب معهد العالم العربي دوراً كبيراً في ردم الهوة الكبيرة التي كانت تتسع يوماً بعد يوم بين الجالية العربية والإسلامية في فرنسا من جهة وبين المجتمع الفرنسي من جهة أخرى.

فعلى مدى خمسة عشر عاماً، أصبحت المعارض الكبرى التي ينظمها المعهد ذات مقاييس ثقافية عالمية تجذب إليها مئات الآلاف من الزائرين، مثلها مثل المعارض الكبرى التي ينظمها متحف اللوفر أو مركز جورج بومبيدو، أو القصر الكبير.. من مصر الفرعونية إلى مصر الفاطمية أو القبطية، أو سوريا مهد الحضارة الإنسانية، والسعودية بمدنها وتراثها الإسلامي، إلى اليمن القديم والمغرب وتونس والجزائر.. كل هذه الدول استطاعت أن تعرض كنوزها الفنية والجوانب المضيئة من تراثها على جمهور متعطش.

وقد وَلّدت هذه المعارض الكبرى لدى الجاليات العربية في فرنسا شعوراً بالاعتزاز بالانتماء إلى حضارة عظيمة كانت لها إسهامات أساسية في مسيرة الحضارة الغربية التي تعيش اليوم في أحضانها. كما أنها من جهة ثانية قدّمت للجمهور الغربي عامة والفرنسي خاصة، صورة مشرقة عن الحضارة العربية التي كانت في أساس الحضارة الغربية علمياً وفكرياً وفنياً. ولم يقتصر نشاط المعهد على المعارض الكبرى فقط، بل ساهم في طبع مئات الكتب و(الكاتالوجات) الفنية الراقية عن العالم العربي، وساهم في ترسيخ فكرة واضحة عن الثقافة العربية في أذهان جيل كامل من الفرنسيين والأوروبيين.

وليس من المبالغة في شيء القول أن هذا المعهد بهندسته المعمارية الرائدة وخدماته الثقافية الثرية والمتنوعة أصبح اليوم معلماً بارزاً من معالم باريس الثقافية الأكثر ارتياداً وجاذبية. وفوق هذا وذاك، أصبح معهد العالم العربي في باريس خلال هذه الأيام العصيبة معقلاً من معاقل الحوار بين الحضارات التي لا بد من الحفاظ عليها وحمايتها مهما غلا الثمن.

الصور: معهد العالم العربي في باريس





المبنى.. الأقسام والنشاطات

منذ القرن الثامن عشر وحتى اليوم اغتنت العاصمة الفرنسية بأكثر من مائة معلم معماري وفني مستوحى من الفن العربي الإسلامي. ولكنّ مبنى معهد العالم العربي بهندسته الرائدة المجددة وبموقعه المتميز يعتبر بحق أهم معلم معماري عربي في الغرب، إذا ما استثنينا بالطبع الكنوز المعمارية التي خلّدها العرب في الأندلس.

صمم المعهد الذي يرتفع في قلب باريس التاريخية والثقافية العريقة مجموعة من المهندسين المبدعين: جان نوفيل، جيلبير ليزنيس، بيير سوريا وارشيتكتور ستوديو. وقد جاء جامعاً لتأثيرات ثقافية وفنية متعددة، فهو يزاوج بشكل متناسق بين التقليد والحداثة، بين «الجوانية» التي تميز الهندسة المعمارية في الوطن العربي وبين التأثيرات والانفتاحات الغربية على هذه الهندسة.

واجهة البناء الشمالية تتوجه نحو باريس التاريخية وترمز إلى العلاقة مع المدينة القديمة الحاضرة في رسومات مُعبّرة، في حين أن الواجهة الجنوبية تستوحي وتستعير النماذج والأنساق التاريخية للهندسة المعمارية العربية من خلال 240 مشربية تنفتح وتنغلق بتغيّر الساعات.

ويضم المعهد متحفاً متميزاً للفن العربي الحديث ومكتبة ومركز توثيق ومعلومات وقاعات محاضرات وعرض ومتحفاً للسينما العربية وقسماً للموسيقى العربية وقسماً للفن الفوتوغرافي وقاعة للصوت والصورة ومكتبة لبيع الكتاب العربي أو المتخصص بالوطن العربي وقسماً للنشر ومركزاً لتعليم اللغة العربية.

ويقوم المعهد بتنظيم معرض دوري للكتاب العربي ومهرجان للسينما والشعر وتنظيم نشاطات للأطفال وندوات ومؤتمرات متعددة واستقبال العروض الفنية العربية، إضافة إلى إصدار مجلات متخصصة أبرزها مجلة «قنطرة».

ديوان الأمس ديوان اليوم

إلى بغداد

يختار الأستاذ رجاء النقاش* عيوناً من شعر الأمس وشعر اليوم تناجي بغداد ويقدم لها:

لمدينة بغداد أسماء عديدة منها: مدينة السلام، والزوراء، ومدينة المنصور، ومدينة الخلفاء. واسم (بغداد) له مكانته وسحره في الوجدان العربي، ومازلنا نستخدم في أحاديثنا الشعبية كلمة (تبغدد) أي أنه أظهر الأناقة والرشاقة والترف والخيلاء والاعتزاز بالنفس. أما كلمة بغداد في الوجدان الشعري فلها مكانة كبيرة، فالكثيرون من شعراء العرب القدماء والمعاصرين كتبوا قصائد جميلة عن هذه المدينة الساحرة، المثيرة للخيال والمشاعر العميقة الأصيلة، سواء أكان ذلك بفضل تاريخها القديم العظيم، أم بفضل ما تتمتع به من جمال وتنوع واسع في طبيعتها وآثارها. ولا تكاد توجد مدينة عربية أخرى تتمتع بما تتمتع به بغداد، من مكانة شعرية توشك أن تتفوق على مكانتها التاريخية.

وهذه مختارات مما قيل في بغداد والعراق من الشعر المعاصر والقديم، فبغداد في عيون الشعراء هي نبع من أجمل وأغنى ينابيع الفن والإلهام .

* الأديب والناقد المصري المعروف

وداعاً أيها الضوء الشتوي
وداعاً
يانار الموقد
يا حطباً يتأجج ما بين شظاياه الجمر
غدي
وداعاً
المقصلة التمّت عبر حبال سود
تلتف وتلتف على عنق طالت
تاهت
صارت مداً أبعد من مدّ يدي
وداعاً .. يا الآتون إليّ
بلا أمسِ .. وبدون غدِ
ما أجملَ موتاً
ينسينا ما كان لنا .. ما سوف يكون لنا
ما أجمل موتاً يوغل في صمتٍ أبدي

بلند الحيدري

.....
أُغنّي لبغداد، أستنشق الليل فيها
أُغنّي لدار السلام
أُغنّي بلهجتها ، فكأني فتى من بنيها
أُغنّي الصَّبا، أغني المقام
أصاحب أكرادها،
أتعلم منهم محبتهم للفَرَسْ
طريقتهم في امتشاق الحسام
وأهتف في الليل عاش السلام!

أحمد عبد المعطي حجازي

بغدادُ يا بلدَ الرشيد
ومنارة المجد التليد
يا بسمةً لمَّا تزل
زهراءَ في ثغر الخلود
يا موطنَ الحبّ المقيم
ومضرب المثل الشرود
ياسطرَ مجدٍ للعروبة
خُطَّ في لوح الوجود
يا راية الإسلام
والإسلام خفّاق البنود
يا مغربَ الأملِ القديم
ومشرقَ الأمل الجديد

علي الجارم

لقد كان عهدي بالعراق سخِيَّة
ذُراه، وكفُّ الراتعين به رطب
وأفياؤه ممدودة، ونسيمه
زكِيّ الشذا، غضٌّ، وفردوسه رحب
وأفنانه ممطورة، وأديمه
– تذكرك النسرين أنفاسُه – خصب
فهل حضنه صار الضنين بحدبه
عليك، فلا عطف لديه، ولا حدّب؟

عدنان العوامي

بِغداد ..جئتك كالسفينةِ متعباً
أُخفي جراحاتي وراء ثيابي
أنا ذلك البحّارُ أنفق عمرَهُ
في البحث عن حبٍّ .. وعن أحباب
حتى رأيتُكِ قطعةً من جوهرٍ
ترتاح بين النخل والأعنابِ
بغدادُ عشتُ الحسنَ في ألَوانه
لكنّ حُسنكِ لم يكن بحسابي
ماذا سأكتبُ عنك في كتبِ الهوى
فهواك لا يكفيه ألفُ كتابِ

نزار قباني

......
أستودعَ اللهَ في بغدادَ لي قمراً
بالكرخِ من فلكِ الأزرارِ مطلعُهُ
ودعتُهُ وبوُدّي لو يودّعُني
صفوَ الودادِ وأني لا أودّعُهُ
وكم تشبّث بي عند الرحيلِ ضُحىً
وأدمُعي مُستهِلّاتٌ وأدمُعُهُ
لا أكذب اللهَ ثوبُ العذرِ منخرقٌ
عنّي بفرقتِهِ لكنْ أُرقّعُهُ
إنّي أوسِّعُ عُذري في جنايتِهِ
بالبَيْنِ عنه وقلبي لا يُوَسِّعُهُ
أُعطيتُ مُلكاً فلم أحسنْ سياسَتَهُ
كذاك من لا يسوسُ الملكَ يخلَعُهُ
ومن غدا لابساً ثوبَ النعيمِ بلا
شكرِ الإلهِ فعنهُ اللهُ ينزعُهُ

إبن زريق البغدادي

بغدادُ ما اشتبكت عليكِ الأعصرُ
إلا ذَوَتْ ... ووريقُ عُمرِك أخضرُ
مرّت بك الدنيا، وصبحُك مشمسٌ
ودَجتْ عليكِ، ووجهُ ليلِكِ مُقمرُ
وقَستْ عليكِ الحادثاتُ، فراعَها
أن احتمالَكِ من أذاها أكبرُ
حتى إذا جُنّت سياطُ عذابِها
راحت مواقعُها الكريمةُ تسخرُ
فكأنّ كِبرَكِ- إذ يسومُكِ (تيمرُ)
عنتاً- دلالُكِ إذ يضمّك (جعفرُ)
وكأنّ نومَكِ - إذ أصيلُكِ هامدٌ-
سِنةٌ، على الصبحِ المرفّهِ تخطُرُ
للّهِ أنتِ.. فأيُّ سرٍّ خالدٍ
أن تسمني، وغذاءُ روحِك يَضمرُ
أن تشبعي جوعاً وصدرُكِ ناهدٌ
أو تُظلِمي أفُقاً، وفكرُكِ نيّرُ

مصطفى جمال الدين

بغدادُ .. يا أغرودةَ المنتهى
وياعروسَ الأعصرِ الخالية
الليلُ في عينيكِ مستيقظٌ
وأنتِ في مهدِ الهوى غافية
زوارقُ الأحلامِ في سجوة
سكرى ترود الضفةَ الساجية
والحورُ والصفصافُ لم يهجعا
إلا على أقدامِكِ العارية
يحتضنانِ الصمتَ في قبلةٍ
عُذريةٍ مشبوبةٍ سابية
والبلبلُ الليليُّ في شدوِهِ
أيقظَ حتى الدوحةَ الزاوية

عبد الوهاب البياتي

حييتُ سفحَكِ عن بعدٍ فحييني
يادجلةَ الخيرِ، يا أمَّ البساتينِ
حييتُ سفحكِ ظمآناً ألوذُ به
لَوْذَ الحمائمِ بين الماءِ والطينِ
.....
يا دجلةَ الخيرِ: قد هانَتْ مطامحُنا
حتى لأدنى طِماحٍ غيرُ مضمونِ
أتضمنين مقيلاً لي سواسيةً
بين الحشائشِ أو بين الرياحينِ؟
خلوا من الهمِّ إلا همَّ خافقةٍ
بين الجوانحِ أعنيها وتعنيني
تهزّني فأجاريها فتدفعُني
كالريحِ تعجلُ في دفعِ الرياحين

محمد مهدي الجواهري

أعاينتُ في طولٍ من الأرضِ والعرضِ
كبغدادَ داراً إنّها جنّةُ الأرضِ
صفا العيشُ في بغدادَ واخضرَّ عودُه
وعيشُ سواها غيرُ صافٍ ولا غضٍّ
تطولُ بها الأعمارُ إنّ غذاءَها
مريءٌ وبعضُ الأرضِ أمرأُ من بعضِ

عقيل اليربوعي

بغدادُ يا شغفَ الجمالِ
وملعبَ الغزلِ الطروبِ
بنتِ المكارمُ للعروبةِ فيكِ
جامعةَ القلوبِ
بيتٌ من الأخلاقِ ضاقَتْ
عنه أخلاقُ الشعوبِ
وسِعَ الدياناتِ السماحَ
وضمّ أشتاتَ الندوبِ

بشارة الخوري

.....
والبصرةُ تدخلُ تحت شوارعها
تدخلُ تحتَ الماءِ أُجاجاً
تدخلُ تحت الكتب الموصوفة
تدخلُ في الروح ولاتخرجُ إلا والروح..
مدينتنا!
من ضيّع عاداتِ النورس؟
من جاء بغربانِ الجثثِ الأولى؟
من جاءكِ بالأكياس الرملية يا فيروزَ الشطآن؟
من عضَّ سباخكِ بالقتلى؟
نهرٌ عباسي يحفر مجراه
قروناً هذا النهرُ العباسيُّ يتابع مجراه

سعدي يوسف

أتذكّرُ السيّابَ، يصرخُ في الخليج سُدى
عراقُ، عراقُ، ليس سوى العراق..
ولا يردّ سوى الصدى.
أتذكّرُ السيّابَ، في هذا الفضاءِ السومري
تغلبت أنثى على عُقمِ السديم،
وأورثَتْنا الأرضَ والمنفى معاً
أتذكّرُ السيّابَ ..أن الشعرَ يولدُ في العراق
فكن عراقياً لتصبحَ شاعراً يا صاحبي!

محمود درويش

لو أن حيَّاً خالداً فوق الثرى
ما ماتَ «هارونٌ» وزال «معاويَة»
أو كان عِزٌّ دائماً ما أصبحت
«بغداد» في عَدَدِ الطلولِ البالية
أخَنَتْ عليها الحادثاتُ، فدورُها
خِرَبٌ تُعاوِرُها الرياحُ السَّافية
يأوي إليها البومُ غيرَ مُرَوَّعٍ
مِن كُلِّ نعَّابٍ أحمّ الخافية
نَزَلَ القضاءُ فما حماها سورُها
ولطالما ردَّ الجيوشَ الغازية

إيليا أبو ماضي

ماذا ببغدادَ من طيبِ الأفانينِ
ومن منارةٍ للدنيا وللدينِ
تحيي الرياحُ بها المرضى إذا نَسمَت
وجَوَّست بين أغصانِ الرياحينِ

منصور النمري

الشمسُ أجملُ في بلادي من سواها، والظلامْ
حتى الظلامُ هناك أجملُ، فهو يحتضنُ العراقَ
واحسرتاه، متى أنام
فأحسّ أن على الوسادة
من ليلكِ الصيفي طَلّاً فيه عطركِ يا عراق؟
بين القرى المتهيباتِ خطاي والمدنِ الغريبة
غنيت تربتكِ الحبيبة

بدر شاكر السياب

ديوان اليوم ديوان الأمس



في السنوات الأخيرة، خاصة بعد ترجمتها إلى العربية، تنادى الناس لقراءة رواية «الخيميائي» للبرازيلي باولو كويلو. والملفت أن هذه الرواية شدت إليها جيل الشباب قبل غيرهم وكانوا هم أكبر الداعين لقراءتها.

الأديب والناقد محمد العباس قرأ الرواية وكتب عنها، واختار مقطعاً صغيراً منها لقرّاء القافلة..

منادمة النفس الكلية بحثاً عن الأسطورة الشخصية

الخيميائي

عندما يمتلك المرء شجاعة التقدم ناحية حلمه بالفعل، فإن كل العالم سيقف معه لتحقيق هذا الحلم. فلا يمكن لقلب أن يتعذب عندما يتبع أحلامه، لأن الخوف من العذاب أسوأ من العذاب نفسه. هذا هو النداء الخفي الذي تتبنى عليه رواية «الخيميائي» للبرازيلي باولو كويلو، وهو النشيد الذي حمله الراعي الأندلسي سانتياغو في متاهته الصحراوية بحثاً عن كنز مدفون بجانب الأهرامات في مصر، استجابة لحلم طالما راوده في منامه. وعلى ذلك يقرر الترحال من أسبانيا حيث يلتقي الملك ملكي صادق، ويعبر مضيق جبل طارق، مروراً بالمغرب.

وفي طريقه إلى مصر تُزرع في طريقه علامات غامضة، وتواجهه بعض الأحداث المثيرة، وتتناوبه تحولات نفسية عميقة، حيث يعمل في متجر للبلور، ويصاحب رجلاً إنجليزياً، وتسرق أمواله، ويكون شاهداً على حرب تدور بين قبائل صحراوية، حتى يلتقي فاطمة ويبادلها حباً جارفاً كاد أن يمنعه عن المضي في رحلته للبحث عن كنزه، حين توهم بأن الحب يمكن أن يقف بينه وبين حلمه، لولا إنصاته العميق لوصايا «الخيميائي» العارف بأسرار الكون والطبيعة، الذي يقوده إلى وصفة لفك العلامات الكفيلة بتحقيق السعادة، ويحرضه على مواصلة

البحث عما سماه «أسطورته الشخصية» حتى زرع في رأسه تلك العبارة السحرية الأخّاذة: «إذا حلمت بشيء، وعملت من أجله بجرأة، فإنّ كل العالم سيطاوعك لتحقيقه».

في هذه الرواية يحاول كويلو الاقتراب من هاجس كل فرد لتحقيق وجوده الإنساني، وتأكيد حقه في السعادة وهي مستمدة، كما يبدو من تجربة شخصية للكاتب، متأتية أصلاً من ارتطامه بوساعات بياض الصحراء ولا نهائية دلالاتها البصرية والروحية، عبر زيارات للمغرب ومصر، وحب أصيل لسحر الشرق، فبراعة كويلو كروائي تكمن في قدرته على زحزحة المعاش إلى خبرات يمكن روايتها، وتوظيف الحياة كمادة قابلة للسّرد والكتابة.

كما تفصح «الخيميائي» عن شغفه بالأديان، وتماسه الروحي بالإسلام تحديداً، واعتقاده العميق بأن الخلاص يكمن عند هذه العتبة العتيقة، فهو مغرم بالمقدس، ويراه مفتاحاً لإعاقات الإنسان النفسية، كما جسد ذلك في كل رواياته، التي رسم فيها معاناته ككائن بشري على مفصل الانتقال من اضطرابات الشك والتناقض إلى رحابة الوعي، وطمأنينة النفس من خلال إدراك سرّ العلامات الخفية في حياة الفرد، وذلك عبر تواصله السري مع بئر طفولته.

ومن الناحية الفنية تبدو الرواية مجرد تفكيك سردي لكثافة الحبكة في «مرايا» بورخيس، المقتبسة أصلاً من حكايات «ألف ليلة وليلة»، أو هي إعادة صياغة لرواية الأمير الصغير لسانت اكزوبري، ولكن بمرئيات ومزاج وخبرات كويلو، فيما يعرف في القص الحداثي بالاستحواذ، أي التنويع السردي على الأصل الحكائي، بمعنى المحو والكتابة، وموضعه الذات بشكل ارتدادي في نسيج التاريخ كمعادل لحس الزمن، فقد أبدى كويلو قدرته الفذة على تبسيط العناوين الحياتية والفلسفية الخطيرة وإعادة تعليبها في مقولات سهلة الاستيعاب والتداول، فالقصة بمجملها مستمدة حكائياً ودلالياً من موروث عربي إسلامي يقوم على التوصيل المعرفي والحسي عبر الحكاية أو القص بمعنى أشمل.

وتمتاز «الخيميائي» بلغة نقية، مصفاة من الفذلكة، فهي مفعمة بالحس الإيماني الباعث على الطمأنينة، ربما لأنها تحرض على اعتناق الحلم، والاستبسال من أجل تحقيقه انطلاقاً من البحث عن الذات من داخلها، فهي حكاية كل فرد في معركة وجوده، حيث تسائل الذات برهافة حادّة عمّا تمتلك من إشارات فردية للاتصال بالمطلق، وعن الطريقة التي يمكن بها ترجمة تلك العلامات إلى دراية وفعل، ففي إحدى لحظات وجودنا، كما يقول كويلو «نفقد السيطرة على حياتنا التي ستجد نفسها محكومة بالقدر، وهنا تكمن الخديعة الكبرى». وعند هذه النقطة لا بد للذات أن تتنبه لتستأنف الدفاع عن حقها في السعادة.

وتستمر الرواية في تبيان حقيقة أو مكمن الأسطورة الشخصية المفترضة لكل فرد، فالقوى السيئة برأي كويلو، تعلم الإنسان وتضطره لتحقيق أسطورته الشخصية، فهي تتولد حسب الاعتقاد الخيميائي في «النفس الكلية» بما هي رسالة الإنسان على الأرض، مهما كانت بسيطة ، فالنفس الكلية بتصوره «تتغذى من سعادة الناس أو من شقائهم، من الرغبة، من الغيرة. وإنجاز الأسطورة الشخصية هو الالتزام الأول والأوحد للناس، وكل شيء ليس إلا شيئاً واحداً».

لقد حصل سانتياغو في نهاية المطاف على كنزه المادي الذي راوده حد الأرق في أحلامه، والأهم أنه حقق أسطورته الشخصية، أي كنزه الروحي، نتيجة إنصاته الصادق لإيقاع قلبه وانتباهه للعلامات الغامضة التي صادفته كما أوصاه الخيميائي، فقبل تحقيق حلم ما، برأي كويلو «تريد النفس الكلية أن تقوّم كل ما اكتسبه المرء أثناء تجواله، وعندما تفعل فليس ذلك نتيجة عدوانية تجاهنا، وإنما كي نستطيع وحلمنا اكتساب الدروس التي تعلمناها ونحن ماضون نحوها».

هكذا يستفز كويلو بطله نحو حافة الحقيقة. وفيما يوصيه، بصوت الخيميائي، على الثقة بقلبه، يحذره من التوقف ومن الاستسلام لليأس «فهذا يمنعك من التحادث مع قلبك». وفي هذه اللحظة، بتصوره، يتراجع معظم الناس، وعلى ذلك يحاول كعادته، في كل رواياته أن يُلوِّح بالأمل «فأشد ساعات اليوم ظلمة



باولو كويلو



- ولد في ريودي جانيرو سنة 1947م
- قضى ثلاث سنوات في مصح نفسي عندما كان في السابعة عشرة من عمره
- عمل كاتباً درامياً وصحفياً ومديراً مسرحياً، كما ألف بعض الأغاني الشعبية
- يعتبر ظاهرة روائية بالنظر إلى الإقبال على رواياته والتي ترجمت إلى مختلف اللغات
- ترجمت «الخيميائي» إلى خمس وأربعين لغة، ونشرت أعماله في 150 بلداً، ووزع منها ما يزيد على أربعين مليون نسخة
- ترجم له عربياً: على نهر بيدرا جلست وبكيت، حاج كومبوستلا، فيرونيكا تقرر الموت، الجبل الخامس، الشيطان والآنسة بريم
- نال العديد من الشهادات التقديرية والأوسمة
- يعمل كمستشار خاص في اليونسكو ضمن برنامج «تقاربات الفكر وحوار الحضارات»
- يشرف على معهد باولو كويلو، وهو مؤسسة خيرية مصدر تمويلها هو حقوق التأليف العائدة له من أعماله

حاج كومبوستيلا

يمثّل هذا الكتاب باكورة أعمال كويلو، ويروي قصة سعي روحي مميّز على طريق مار يعقوب في إسبانيا.
ينطلق الراوي في مسيرة طويلة، بحثاً عن سيفه الذي فقده لحظة كان يقدَم إليه.
اشترط عليه المعلم لاسترداده أن يقوم بالحج على طريق قديمة، كان يعبرها حجاج القرون الوسطى، واعتبرت مزاراً من أهم المزارات الدينية في الغرب.
تعتبر رواية «حاج كومبوستيلا» المحطة الأهم في حياة كويلو التي انطلق منها إلى محطات أخرى. إنها بداية «الجهاد الحسن» الذي سيدفع بكويلو ليربح معارك الأدب الرفيع.



الخيميائي

رواية كويلو الأكثر شهرة، صدرت سنة 1988م وترجمت إلى خمس وأربعين لغة، وصدر لها بالعربية ثلاث ترجمات لبهاء طاهر، بعنوان «ساحر الصحراء»، وصدرت عن دار الهلال، وشركة المطبوعات للتوزيع والنشر في لبنان، وأيضاً فاطمة النظامي لدار البحث للنشر والتوزيع في سوريا.

هي تلك التي تسبق طلوع الشمس» وعلى القلوب كما يوصي الخيميائي أن تعمل كل ما بوسعها «وعندما يتحارب الناس فإن النفس الكلية هي التي تسمع صيحات القتال، ولا أحد بمنجى مما يمكن أن يحصل تحت السماء» وأن تموت فداء لأسطورتك الشخصية أنبل من أن تعيش دون دراية أو أحقية بأسطورة شخصية.

هذه هي وصية الخيميائي كما صاغها كويلو في رواية. حدِّث نفسك الكلية على الدوام في كل محطة من محطات سفرك الأبدي في هذا الكون «فالنفس الكلية حقاً شيئ واحدٌ وفريد» والخيميائي هو الذي يعرف كيف يحيل المكتسبات والخبرات المادية إلى بوصلة شعورية، وإلى دراية حسية وروحية بأسرار الكون والنفس البشرية، ويجيد التحول إلى الأفضل استجابة لحلم منبعه القلب»، فعندما نسعى لأن نكون أفضل مما نحن عليه، فإن كل شيء من حولنا يتحسن، بالنظر إلى اعتبار مؤكد حد الاعتقاد في خطاب كويلو الروائي «فالحب ضد الجمود، بل يتطلب الحركة وامتلاك القوة التي تُحوِّل وتصقل النفس الكلية».

نحن الذين نغذّي النفس الكلية إذاً، أما الأرض التي نحيا عليها برأيه «فستصبح أفضل أو أسوأ بقدر ما نكون نحن أفضل أو أسوأ، وهنا تتدخل قوة الحب، لأننا عندما نحب فإننا نريد دائماً أن نكون أفضل مما نحن عليه». وهكذا سلح الخيميائي سانتياغو بالحب والإيمان ودفعه لمواجهة مصيره بمفرده بعد أن عبّأ رأسه بحلم النفس الكلية، وبعد أن تيقن من إيمانه بأسطورته الشخصية.

وكما يحدث دائماً في الحياة، حيث يلعب كل شخص الدور الرئيس في سيرة العالم وهو لا يدري، صار سانتياغو يتأمل كل العالم يقف معه ويعاضده للوصول إلى حلمه، وهو يسمع آخر كلمات الخيميائي التي ذابت في دمه: «ستذهب الآن بمفردك، لم يبق إلا ثلاث ساعات من السير كي تصل الأهرامات».

مقتطف من رواية «الخيميائي»

توجه الفتى إلى غرفته، وجمع أغراضه، وملأ ثلاثة أكياس. وفيما هو على أهبة الخروج من الغرفة، شاهد، في إحدى الزوايا، خرجه القديم يوم كان راعياً. كان الخرج في حالة يرثى لها، ذلك أنه كاد ينسى حتى وجوده. وكان لا يزال في داخله كتابه ومعطفه. عندما أخرج المعطف، وفكر في إعطائه لأول غلام يلتقيه في الشارع، تدحرج الحجران الكريمان أوريم وتوميم على الأرض.

ذكّره ذلك بالملك العجوز، واستغرب، عندما أدرك أنه لم يفكّر في ذلك اللقاء منذ زمن طويل. لقد عمل، سنة كاملة، دون كلل. ولم يهتم إلا بكسب المزيد من المال، لئلا يعود إلى أسبانيا منكسراً. سبق أن قال له الملك العجوز: «لا تتخل، إطلاقاً عن أحلامك، وانتبه إلى الإشارات».

التقط أوريم وتوميم عن الأرض. وعاوده الحدس الغريب بأن الملك موجود في مكان قريب. لقد عمل بجهد، طوال هذه السنة، ثم أوحت إليه الإشارات أن وقت الذهاب قد حان.

«سأجد نفسي، تماماً، مثلما كنت من قبل، وحيث لم تعلّمني النعاج اللغة العربية».

ومع ذلك، فإن النعاج قد علمته، من جهة أخرى، شيئاً مهماً، فحواه أن في العالم لغة يفهمها الجميع، وقد استخدمها، هو ذاته، طوال هذا الوقت، لتطوير الحانوت. إنها لغة الحماسة ولغة الأعمال التي نؤديها بشغف واندفاع، لتحقيق نتيجة نتمنى بلوغها، أو نتيجة نؤمن بها. لم تعد مدينة طنجة، الآن، مدينة غريبة عليه، وراوده شعور بأنه إذا كان قد نجح في غزو هذا المكان فبمقدوره أيضاً أن يغزو العالم.

وتذكر قول الملك العجوز: «عندما تريد شيئاً ما، حقاً، فإن الكون بأسره يطاوعك على تحقيق رغبتك». بيد أن الملك العجوز لم يتكلم عن اللصوص، والصحارى الشاسعة، والناس الذين يعرفون أحلامهم، ولكنهم لا يريدون تحقيقها. ولم يقل الملك العجوز أن الأهرامات ليست سوى ركام من الحجارة، وإن باستطاعة أيّ يكن أن يجمع ركاماً من الحجارة في حديقته. كما أنه نسي أيضاً أن يقول إن توافر المال لشراء قطيع يفوق القطيع الذي كان لدينا، يحتّم علينا أن نشتريه.

التقط الخرج وحمله مع الأكياس الأخرى وهبط الدرج. كان التاجر منصرفاً إلى خدمة زوجين أجنبيين، في حين كان زبائن آخرون يحتسون الشاي في أكواب من الكريستال. إنها بداية نهار طيبة في هذه الساعة من الصباح. ولأول مرة، لاحظ من مكانه، أن شعر تاجر البلّور يذكره بشعر الملك العجوز. وتذكر ابتسامة تاجر الحلويات في يومه الأول بطنجة، عندما استيقظ من النوم، وهو لا يدري إلى أين يذهب، وماذا يأكل، لقد ذكرته تلك الابتسامة أيضاً بالملك العجوز.

وقال في سره: «لكأنه مرّ من هنا وترك بصماته، ولكأن كل واحد من هؤلاء الأشخاص عرف الملك، في وقت أو آخر، من وجوده. سبق أن قال إنه يظهر باستمرار لمن يعيش أسطورته الشخصية».

غادر من دون أن يودع تاجر البلور، لأنه لا يريد أن يبكي، فربما تلاقيا. لكنه سوف يتحسّر على هذه الفترة، وعلى كل الأشياء التي تعلمها. كان يشعر أن ثقته بنفسه تزداد، وأنه يرغب في غزو العالم.

«ولكنني عائد إلى البراري التي عرفتها من قبل، وسوق الأغنام من جديد» أحسّ أنه ليس راضياً عن اتخاذه هذا القرار. لقد عمل سنة كاملة لكي يحقق حلمه، وكان هذا الحلم بين دقيقة وأخرى، يفقد من أهميته، لأنه في آخر المطاف قد لا يكون حلمه بالذات.

«من يؤكد، بعد كل ما جرى، أن ليس مستحسناً أن يغدو كتاجر البلور الذي لن يذهب أبداً إلى مكة، بل يعيش على الرغبة في الذهاب إليها؟» ولكنه يملك أوريم وتوميم، وهذان الحجران الكريمان يزودانه بقوة الملك العجوز وإرادته. ورد إلى ذهنه أنه، بفعل المصادفة، أو بفعل إشارة ما، وصل إلى المقهى الذي ارتاده أول يوم. لم يشاهد اللص فيه، بل جاءه صاحب المقهى بكوب من الشاي. قال في نفسه: «أقدر على الدوام أن أكون راعياً. لقد تعلمت العناية بالأغنام. ولن أنس إطلاقاً كيف هي. لكن قد تفوتني فرصة الذهاب إلى أهرامات مصر. كان الملك العجوز يرتدي صدرية من ذهب، وكان يعرف سيرة حياتي. لقد كان ملكاً حقيقياً، ملكاً حكيماً».

ها هو يبعد، من سهول الأندلس، مسافة ساعتين تقريباً بالمركب. ولكن، بينه وبين أهرامات مصر، صحراء. وفهم أنه من الممكن النظر إلى الوضع، على النحو التالي: إنه، في الحقيقة يبعد الآن حوالي الساعتين عن كنزه. وحتى لو أراد أن يجتاز هذه المسافة التي تقتضي ساعتين اثنتين، فإنه في حاجة إلى سنة كاملة لتحقيق ذلك.

«إنني أفهم جيداً رغبتي في العودة إلى أغنامي، فأنا أعرف تلك الأغنام من قبل، وهي لا تحتاج إلى كثير من الجهد، وبوسعي أن أحبها. أيمكن أن أحب الصحراء؟ لا أدري. ولكن الصحراء هي التي تخفي كنزي. وإذا لم أعثر عليه، فبمقدوري العودة، متى شئت إلى دياري. مع ذلك، فإن الحياة أعطتني دفعة واحدة المال الكافي والوقت الكافي. إذن، لم لا؟».

أحسّ في هذه اللحظة، بجذل غامر، ذلك أن بإمكانه أن يعود راعياً في أي وقت، وأن يعود بائع كريستال في أي وقت. ربما كان العالم يخفي كنوزاً أخرى مخبوءة، ولكنه حلم بكنزه غير مرة، والتقى ملكاً، ومثل هذا الأمر لا يحدث لجميع الناس.

كان في غاية السرور عندما غادر المقهى. تذكر أن أحد ممولي التاجر كان يأتيه بالكريستال مستخدماً القوافل التي تعبر الصحراء. أبقى أوريم وتوميم في يده، وبسبب هذين الحجرين الكريمين، سوف يعود إلى طريق كنزه.

وتذكر ما قاله الملك العجوز: «إنني دائماً، إلى جانب أولئك الذين يعيشون أسطورتهم الشخصية». لن يخسر شيئاً بذهابه إلى محطّ القوافل، ليعرف ما إذا كانت الأهرامات بعيدة فعلاً إلى هذا الحد؟

قول آخر..

من أعماق الذات.. وإليها!

د. تركي الحمد

الإبداع هو إعطاء ما لا معنى له شيئاً من المعنى، أو اكتشاف المعنى فيما يُعتقد أن لا معنى له. وبذلك فإن الإبداع ليس شيئاً متاحاً لكل أحد، رغم أنه في متناول أي أحد، وذلك مثل الفلسفة تماماً، والفلسفة نوع من الإبداع في أية حال، فالدهشة هي مفتاح الفلسفة، كما قال أرسطو، والدهشة بداية السؤال، وفي البحث عن إجابة يكمن الإبداع. الكل يندهش في هذه اللحظة أو تلك، ولكن قلة هي من تبقى على اندهاشها وبحثها عن جواب، ومن هنا يكمن الفرق المبدئي بين الفيلسوف والعامي، بل وهنا يكمن الفرق الأولي بين المبدع وغيره. قد يكون الإبداع هبة من السماء منحها الخالق لهذا أو ذاك من الناس، ولكنها في اعتقادي هبة كان الرحمن فيها عادلاً مع الجميع، ولكن هناك من يقدر هذه الهبة ويمنحها قدرها، وهناك من يتجاهلها لهذا السبب أو ذاك. الحياة ذاتها من حولنا إبداعٍ، لمن ملك العين وأصاخ السمع وأطاع العقل والروح معاً.

زرقة وخضرة وصفرة وحمرة. أزهار وبلابل، أشجار وبحار، سماء وأرض، ليل ونهار، وبشر في كل ذلك يتدافعون. والمبدع حقيقة لا يفعل شيئاً سوى أنه يعيش هذا الإبداع، ويحاول أن يرتشف روحه، ويخترق الحجب كي يدرك معنى ما يبدو لعين من ليس له عين وكأنه بلا معنى ولا روح. والإبداع، والحالة هذه، لا يحده حدود، ولا تقيده القيود، فقد تجده في كل ما تعارف عليه البشر من تقسيمات في علم أو فن أو أدب. اكتشاف المكتشف إبداع، واختراع المخترع إبداع، وسرد الروائي، وجماليات الناثر والشاعر، ولوحة الفنان، كلها إبداع، وكلها في جوهرها استكناه للطبيعة وما حوته من إبداع أصلي وأصيل. الحياة هي الإبداع، ومن حاول فهم معنى الحياة، فهو مبدع بالضرورة لأنه يستقي من النبع الأصيل، وعين الحياة المتدفقة.

من هنا يمكن أن نتحدث عن الرواية وجماليات السرد بصفتها جزء من جماليات الحياة. لست ناقداً أدبياً. ولا أملك من أدوات النقد إلا تذوق الجمال، والإحساس بالإبداع حيثما كان، وأحمد الله كثيراً على ذلك، إذ كثيراً من الأحيان ما تكون محاولة الحكم على الإبداعٍ نوعاً من القيد على الإبداع، وأنا لا أحب القيود كائناً ما كانت. لذلك فإن حديثي هو حديث من يعيش في خيمة الإبداع، وليس حديث من يصف الخيمة ويقوّمها من خارجها. ومن هذا المنطلق أقول: الرواية هي ديوان الحياة، فهي انعكاس للحياة ذاتها بكل ما تحمله من تناقضات ومتناقضات، صعود وهبوط، نجاح وفشل .. بإيجاز العبارة، بكل ما تحمله التراجيديا البشرية من معان خفية لا تسلم نفسها إلا لمن بحث عنها.

الحياة ذاتها رواية أو ملحمة طويلة، وما الروائي إلا مقلد للحياة ذاتها، وباحث عن معناها في هذه الجزئية أو تلك اللقطة أو ذلك الموقف أو ذلك الإحساس. وكلما كان الروائي، أو الباحث عن المعنى، أو اللا معنى، من كل طيف وجنس مخلصاً ومحترقاً بنار الأسئلة في غوصه في أعماق الحياة وسراديبها، كان عمله أكثر قدرة على الإسهام في كشف الحجاب عن لغز هذه التراجيديا البشرية.

وحين يكون المبدع مخلصاً ومحترقاً بلهيب الأسئلة، فإن ما يبدعه يخرج من أعماق الذات وإلى أعماق الذات يعود، وذلك حين تتشربه ذوات أخرى، وهنا تكمن قيمة الإبداع في هذا المجال. أن تكون للنقاد مقاييس أخرى للحكم على العمل، وتصنيفه أو تقويمه بصفته من هذا الجنس الأدبي أو ذاك، أو حتى لا جنس له على الإطلاق، مسألة لا ترد على الخاطر حين التعامل مع الرواية وكتابتها، المهم هو أن تكون نابعة من الذات، مصورة لتراجيديا البشر في معمعة الحياة. هذا ليس تقليلاً من قيمة النقد وأدواته، بقدر ما هو القول أن الإبداع سابق على نقده، ومن معين الإبداع ينبثق النقد ويتغذى، وليس من الضروري أن يكون العكس. والمبدع الذي يضع نصب عينيه أن يتقيد بهذا المذهب الأدبي أو ذاك مثلاً، فإنه في النهاية لن يكون مبدعاً، لأن الهدف والحالة هذه ليس سبر الحياة بقدر ما هو التقيد بقالب أو نص قد لا يكون منتمياً إلى زخم الحياة. فللشعر بحور وأوزان مثلاً، وقد يكتب أحدهم قصيدة تلتزم بكل ذلك، ولكنها لن تكون قصيدة روحاً وإن كانت شكلاً. فالشعر من الشعور، وما لا يعكس الشعور لن يكون شعراً حتى وإن بدا أنه كذلك، إذ لا جسد دون روح في النهاية.

وبالمثل يمكن القول عن الرواية، أو أي إبداع فني أو أدبي آخر. فحين كتب دوستويفسكي أو تولستوي أو ديكنز أو هوجو رواياتهم الخالدة، لم يكونوا يبحثون عن أي قالب يضعون فيه إبداعاتهم، بقدر ما كان الهم هو البحث عن المعنى في كل ما يجري هنا أو هناك من حولهم، ثم أتى النقاد من بعد ذلك وصنفوا. وعندما كتب جيمس جويس أو لورنس أو كافكا أعمالهم، كانت غير منسجمة مع قوالب نقاد ذاك الزمان، ولكنها حددت قوالبهم بعد ذلك. المعيار الأول لأي إبداع أدبي هو الخروج من الذات واختراق الذات، دون قيد من قالب جامد، وذاك لا يكون إلا حين يكون العمل متشرباً لزخم الحياة، كما قيل آنفاً، ومن بعد ذلك تأتي بقية الأشياء.

القضية هنا، وإذا أردنا التشبيه مع الفارق، شيء مثل مقولة المسيح عليه السلام: «هل خُلق السبت للإنسان، أم خُلق الإنسان للسبت»، وبإجابة هذا السؤال يتحدد المعيار.

«لله مطبعة بحسن طباعها
أحيت عظام الكتب وهي رميم»

(الشيخ أحمد عباس الأزهري)

الطباعة.. طبعت عصرنا

ملف من إعداد فريق تحرير القافلة

صفحات.. صفحات.. صفحات.

تنبثق أرتال الصفحات من بطون آلات الطباعة تماماً كما تنبثق الينابيع من بطن الأرض.

تدور المطابع ليل نهار.. يتردد صداها كدوران عجلات القطار. مع كل دورة تسحب الآلة الطباعية ورقة ثم أخرى .. تطبع عليها حروفاً وألواناً وصوراً.

فما هي قصة الطباعة؟ وكيف تعمل هذه الآلات التي لا تكل لتحقق دورها كوسيط لا غنى عنه بين الكاتب والقارئ.. وكيف تحوّل الكلمة المكتوبة إلى كلمة مطبوعة وعلى مئات ملايين الأوراق في كل أنحاء المعمورة، مع مطلع كل صباح،لتبث العلم والمعرفة..والأخبار.

تعدد في خدمة الكلمة

المطبعة.. ذلك المكان المكتظ بتفاصيل المهنة، لا زال يحتفظ بكثير من أسراره الغائبة عن الكثيرين.. ما هو حاضر في أذهان الناس عن هذه الصناعة الجبارة، أنها تدفع إليهم كل يوم بتلال من الكتب والصحف والمجلات والمنشورات.

هذه الصناعة تتعرض الآن لتغيرات طال انتظارها، وليس لهذه التغيرات علاقة بالخشية من أن تغادر الكلمات صفحة الورق إلى صفحة الشاشة الإلكترونية. إنها تنحصر باختصار في المراحل العديدة والدقيقة التي تمر بها هذه العملية ابتداءً من يد المؤلف إلى أفواه مكائن الطباعة.

في هذا الملف تعريف بمختلف أوجه هذه المهنة الجبارة التي طبعت عصرنا، مع إلقاء الضوء على متغيراتها، من غير أن نحرم القارئ من تاريخها الشيّق في العالم وفي دنيا العرب.

شكر خاص للمطابع التي أتاحت لفريق القافلة التصوير في مواقعها وهي: مطابع الرضا، مطابع دار اليوم (الدمام)، مطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، مطابع السروات (جدة)

تاريخها..
قبل غوتنبرغ.. بعد غوتنبرغ

كانت مهمة الطباعة في كل العصور ولا تزال حتى اليوم واحدة: إنتاج عدة نسخ من أصل واحد مرسوم. لكن تنوع أساليب الطباعة وفقاً للحاجات والوظائف المختلفة ظل موضع بحث لم ولن يتوقف، والسعي إلى تحسين وسائل الطباعة وتسهيل استخدامها هو ما صنع تاريخها.

وقد سمح فن حفر الخشب للصينيين بأن ينتجوا أول كتب مطبوعة عرفها الإنسان. وأقدم كتاب مطبوع وصل إلينا هو «درة البوذية» الذي طبع عام 868م، وطابعه هو وانغ تشيه. وكان نص الصفحة يحفر كاملاً على الخشب ويحبّر للضغط والطبع على الورق.

ويُروى أن الأوربيين في القرون الوسطى لم يصدقوا ما سمعوه من رحالتهم الشهير ماركوبولو، عندما أخبرهم أن سكان الصين يستعملون نقداً من ورق ممهور بمادة قرمزية اللون. رفض الأوربيون آنذاك هذه الرواية، لأنهم عجزوا عن أن يتصوروا ورقة مطبوعة تحلّ محل الفضة والذهب، ولكن هذه الورقة المطبوعة انتصرت لاحقاً أينما كان في العالم، وحلّت بالفعل محل الذهب والفضة. في ذلك الوقت، كان اليابانيون يطورون تقنية مختلفة للطباعة بتفريغ اللوح الخشبي وتعبئة الفراغات بالحبر لتطبع أشكالها على الحرير. وهي طريقة شبيهة بمبدأ طباعة «الاستنسيل» التي نعرفها اليوم.

من صنع لي حرفاً

غير أن المفصل التاريخي في مسيرة الطباعة يتمثل في رجل واحد يردّ إليه الكثيرون من باب التبسيط «اختراع الطباعة» ألا وهو الألماني يوهانس غوتنبرغ (1397 – 1468م). كان غوتنبرغ أول من طوّر فكرة صناعة حروف معدنية منفصلة عن بعضها البعض، يتم تجميعها لتؤلف كلمات الصفحة الواحدة. وبعد طباعة هذه الصفحة، كان يعاد فرط هذه الأحرف، ليعاد استخدامها مرة أخرى.

إلى ذلك، صنع غوتنبرغ بنفسه ماكينة الطبع الخشبية التي تعمل بالضغط على هذه الأحرف، وتجهزها بالحبر المناسب للطبع، وصنع السبيكة المعدنية لإنتاج الأحرف نفسها.

الألماني يوهانس غوتنبرغ مخترع المطبعة الحروفية، وصورة مصف جمع الحروف

كانت الأحرف التي صنعها غوتنبرغ بارزة، وهي ما تعرف حتى اليوم بـ «الأبهات». وبطرق هذه الأحرف على النحاس يُصنع القالب الذي يسمّى «الأمهات». وفي هذا القالب، صبّ غوتنبرغ سبيكته المؤلفة من الرصاص والقصدير والأنتيمون ليحصل على الأحرف المعدنية، التي تصنف في خانات صندوق كبير على طاولة مائلة، لإنتاج الأحرف نفسها، يُعرف بصندوق الحروف، تجمع منه الكلمات والأسطر.

تغلب غوتنبرغ على كل الصعاب التي واجهته، واستطاع طباعة 200 نسخة من كتابه الأول بلون واحد، مضيفاً إليه حروف البدء والزخارف الحمراء والزرقاء يدوياً. وحتى اليوم، يوجد في العالم 43 نسخة من طبعة غوتنبرغ، أشهرها النسخة المحفوظة في مكتبة الكونغرس، والتي اقتنتها عام 1930م بأكثر من مليون دولار.

جُوبهت المطبعة في بدء ظهورها بعداء كبير من فئات عدة ولأسباب مختلفة. فالنُساخ اهتزت مكانتهم، وقضي على مهنتهم فيما بعد. وتجار الكتب استخفّوا بقيمة هذه الكتب المطبوعة، ولم يؤمنوا بقدرتها على منافسة المخطوطات الجميلة. أما الكُتّاب والمؤلفون فقد توجسّوا شراً من انتشار الغثّ والثمين على مستوى واحد. ونعى أحدهم الاختراع الجديد بأنه: «سيجعل من المستطاع نقل أكثر الأفكار حماقة إلى صفحات ألف كتاب في لحظات».

> نعى أحدهم الاختراع الجديد بأنه: «سيجعل من المستطاع نقل أكثر الأفكار حماقة إلى صفحات ألف كتاب في لحظات».

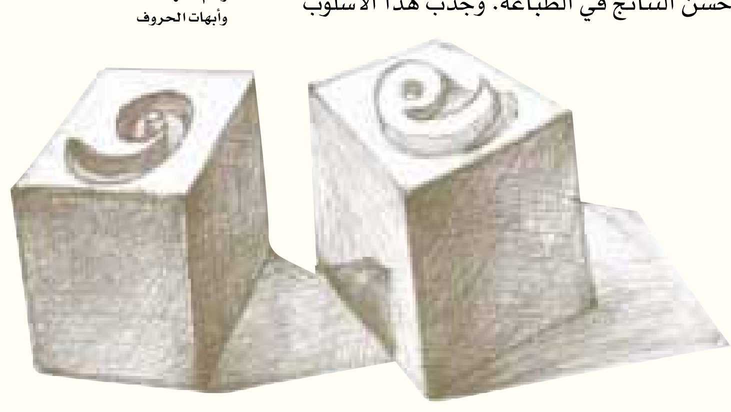
لكل هذا، حاولت الكتب المطبوعة الأولى أن تكون شبيهة بالمخطوط إلى أقصى حد ممكن. وقد حاكم برلمان باريس أحد تلامذة غوتنبرغ ويدعى فاوست بتهمة الغش؛ لأنه باع كتاباً مطبوعاً على أساس (أنه) مخطوطة.

لكن الاختراع الجديد لم يتوقف عن التقدم والانتشار، فسرعان ما شقّت المطبعة طريقها في أوروبا المتعطشة للكتب. وهذا التعطش كان يتغذى من جملة تحولات شهدتها الحياة الأوروبية آنذاك على مختلف الصُعد في الفنون والآداب والفكر، وكانت تعكس نظرة جديدة إلى الإنسان ودوره في هذا العالم، أي ما نسميه اليوم بـ «النهضة الأوروبية». وهكذا انتشرت المطابع في إيطاليا وانجلترا وبلجيكا وهولندا والنمسا وأسبانيا قبل نهاية القرن الخامس عشر. وصارت العودة إلى الوراء أمراً مستحيلاً.

وفي حين أن غوتنبرغ قلّد في تصميم حروفه المعدنية خطوط النُسّاخ، وضع الإيطالي مانثيوس أول حروف طباعة مائلة، ولعل هذا ما يفسر تسمية الحروف المائلة حتى اليوم بـ Italic، للدلالة على أصلها الإيطالي، كما أنتج هذا الطابع أول كتب جيب صغيرة الحجم في العالم.

احتاجت المطابع الجديدة إلى الورق وبكميات تفوق مئات المرات حاجات النُسّاخ القدامى، فاضطرت أوروبا لتصنيع الورق آلياً بعد أن كانت تستورده من الشرق، أو تصنعه يدوياً. كما افتُتحت دور «سبك الحروف» الخاصة لتغذية المطابع. وتطلبت طباعة الكتب تجليداً يواكبها، فبدأ فن التجليد والتغليف الآلي. وهكذا راحت الصناعة الكبرى تتفرع إلى مجموعة صناعات من الباطن إذا جاز التعبير.

استمرت الرسوم المحفورة على الخشب ترافق الكتب المطبوعة، لكن الطابعين الجدد عكسوا الطريقة التقليدية باختراعهم الحفر الغائر على النحاس، ومن ثمَّ تحبير الأماكن المحفورة فقط للحصول على أحسن النتائج في الطباعة. وجذب هذا الأسلوب



رسم لأمهات وأبهات الحروف

عدداً كبيراً من أشهر فناني أوروبا الذين تصدوا له بإبداع كبير. ومن أبرز هؤلاء الفنانين الرسام الشهير البريخت ديورر، الذي أولى هذا الشكل الطباعي لرسوماته الأهمية نفسها التي كان يوليها للوحاته الزيتية. ولكن المهم هو أن الفن بقي ملازماً للطباعة، وترسخت العلاقة ما بين المهنتين، بعد أن اعتقد البعض لوهلة أن الطباعة الآلية ستقضي على الأبعاد الفنية في الكتاب.

بعبارة أخرى، كان تحوّل الطباعة إلى صناعة وعمل آلي على يد غوتنبرغ، منعطفاً مهماً في تاريخ العالم، دخل منه إلى عصر جديد، تيسرت فيه المعارف والعلوم لأعداد هائلة من البشر. كما كان لهذا التحول الفضل الأول في ظهور اختراعات جديدة مثل الصحف اليومية والمجلات الدورية، وتطورت بفضله فنون وصناعات عدة بدءاً بفنون الإعلان والزخرفة، وصولاً إلى صناعات الملابس وتعليب الأطعمة.. حتى صارت الطباعة صناعة ضخمة تلفّ حياة المجتمع المعاصر من كل حَدَب وصَوْب.

كان تحوّل الطباعة إلى صناعة وعمل آلي على يد غوتنبرغ، منعطفاً مهماً في تاريخ العالم، دخل منه إلى عصر جديد تيسرت فيه المعارف والعلوم لأعداد هائلة من البشر

المواكبة العربية ..

لم تتأخر الطباعة العربية أكثر من مئة وخمسين عاماً عن الطباعة في الغرب، مما سمح للمطبعة العربية أن تلعب دوراً تنويرياً مهماً في النهضة العربية الحديثة، فقد يسرت نشر العلم والمعرفة في مجتمعات كانت بأمس الحاجة إليها، وعززت الروابط الثقافية بين الأقطار العربية.

ناضلت المطبعة العربية لتبقى وتتقدم في أقسى الظروف الاجتماعية والسياسية. عاصرت الحروب والاستعمار، وكافحت الأمية والتخلف، وأوجدت مراكز إشعاع رئيسة، ارتبطت بكل بقعة من دنيا العرب، من المحيط إلى الخليج.

كان المتصدون لهذا العمل الجديد من كبار المثقفين، حتى أن معظمهم كان المؤلف والمصحح والإداري والناشر في آن واحد. وفي جانب آخر شكلت الطباعة قطاعاً صناعياً جديداً، ساهم إلى حد ملحوظ في التطور الاقتصادي والتنموي.

الطباعة الحجرية نقلت المخطوط العربي إلى آفاق الانتشار: كتاب (سبائك الذهب في معرفة أخبار قبائل العرب) كما طبعته دار الطباعة والسلام في بغداد سنة 1863م

تعود حكايات المطبعة العربية إلى مدينة حلب في سوريا في بدايات القرن الثامن عشر، فإلى هناك وصلت أول مطبعة عربية هدية من حاكم مقاطعة الأفلاق برومانيا إلى رئيس إحدى الطوائف المسيحية. ووجدت هذه الهدية في شخص الرائد الطباعي العربي الشماس عبدالله زاخر مايؤهلها للعمل والاستمرار.

كان عبدالله زاخر منذ صغره موهوباً في مهنة الصياغة والنقش. تعلم صناعة الساعات وسبك الفولاذ، وتلقى تعليمه في المدينة من دون أن ينتظم في مدرسة. ومن المؤكد أنه درس العربية على يد الشيخ عبدالله النحوي، فقد كانت حلب، عندما ولد فيها عبدالله زاخر عام 1684م، مركزاً ثقافياً مهماً.

وقد عرفت مطبعة حلب الأولى التي أدارها زاخر باسم صاحبها «الدبّاس». وتمكن زاخر في سنوات قليلة من طباعة ثمانية كتب في هذه المطبعة، كان أولها عام 1706م. ولكن خلافاً حاداً نشب بين زاخر ورئيسه الذي استصدر أمراً يقضي بقطع رأسه، فهرب من المدينة، لتتعطل بذلك مطبعة حلب وينساها التاريخ.

كان من حسن حظ الطباعة العربية أن يلجأ عبدالله زاخر إلى دير هادئ بالشوير في لبنان عام 1722م، ويمكث فيه قرابة خمس وعشرين سنة حتى وفاته.. فقد أتيح للرجل أن يتفرغ لصناعة وتجميع أول مطبعة عربية خالصة.

رسم زاخر الحروف النسخية، وصنع قوالب للأبهات والأمهات. وكان صندوق حروفه يحوي 900 شكل، على طاولة طولها 18 ذراعاً. وجاءت حروفه واضحة على عكس الحروف التي جاءت من أوروبا. كما أنه أدخل الشدّة والفتحة والضمة والتنوين لأول مرة. وصنع بنفسه المصبّات والمكابس، إضافة إلى الحبر الطباعي الذي كان يركّبه من الأعشاب وعصير الرمان وغبار الدخان الأسود. وكتب رسالة في صناعة الأحبار الطباعية. ولخبرته بالرسم والحفر، كان يحفر «الكليشيهات» بنفسه. وأول كتاب طبعه في مطبعته عام 1734م، اتبع فيه الطريقة العربية في الترقيم والتي تقضي بتكرار آخر كلمة على الصفحة في مطلع الصفحة التالية.

استمرت مطبعة الشوير بالعمل لأكثر من قرن ونصف

بعد وفاة زاخر سنة 1748م. وقد اُعتبر زاخر رائد الطباعة العربية، وأول مصمم وسابك حروف عربي. وتكمن أهميته في جانب آخر، في كونه فاتح الباب الطباعي الذي دخله كثيرون.

ضجيج جديد يعم بلاد العرب

خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهرت أكثر من 25 مطبعة في لبنان، إضافة الى معامل التجليد وسبائك الحروف بلغات متعددة، منها العربية والتركية والفارسية والسريانية والكلدانية. وكانت المطابع اللبنانية سبّاقة في استخدام التقنيات المتجددة في مجال الطباعة، إذ استُعمل المحرك البخاري في المطبعة الكاثوليكية عام 1878م. وافتتحت المطبعة الأمريكية قسم التصوير الشمسي عام 1875م، وفي عام 1930م أديرت المطبعة الكاثوليكية بالكهرباء.

وفي مصر، بدأ فن الطباعة بمطبعة الحملة الفرنسية التي جلبها نابليون معه عند احتلاله مصر عام 1798م. وجلب معها حروفاً عربية من مطبعة الجمهورية الفرنسية، لكن الفرنسيين أعادوها معهم بعد انتهاء فترة احتلالهم القصيرة. ثم جاء محمد علي باشا فأوفد بعثات لتعلم الطباعة في إيطاليا وفرنسا، وأنشأ المطبعة الأساس في تاريخ الطباعة المصرية: مطبعة بولاق، عام 1864م. ومنذ مطلع إنشائها بدأت مطبعة بولاق كبيرة، إذ عرفت الطباعة الحروفية والحجرية وأنشأت مسبكاً لإنتاج الحروف الطباعية ومصنعاً لتجهيز الحبر الطباعي. وساهم المتدربون فيها بتشغيل المطابع الحكومية والأهلية التي انفتح الباب واسعاً أمامها. وببدء مطبعة بولاق بطباعة صحيفة «الوقائع المصرية» افتُتح عهد الصحافة المصرية المرتبطة بالطابع الحديث، فظهرت مطبعة جريدة الأهرام لسليم تقلا بالإسكندرية عام 1876م، وجريدة ومطبعة وادي النيل عام 1866م، ومطبعة ومجلة الهلال عام 1898م والكثير غيرها. وعرفت الطباعة المصرية تطورات سريعة في بدايات القرن العشرين، إذ أدخلت آلة الجمع الآلي «لينوتايب» العربية عام 1908م.

وفي العشرينيات تولت الطباعة الحجرية طباعة الملصقات الإعلانية الضخمة للمسرحيات، كما جلبت

ناضلت المطبعة العربية لتبقى وتتقدم في أقسى الظروف الاجتماعية والسياسية، وكافحت الأمية والتخلف، وأوجدت مراكز إشعاع رئيسة، وربطتها بكل بقعة من دنيا العرب



الطريق إلى المطبعة التي تحولت إلى متحف

عبد الله زاخر في لوحة زيتية

قالب الحروف المصفوفة

كتاب بالسريانية والعربية من طبع عبد الله زاخر

حامل واكليشيهات عربية من القرن السابع عشر

آلة الطباعة التي صنعها زاخر

مجلة (اللطائف المصورة) أول آلة طبع كليشيهات الصور المحفورة على الزنك عام 1915م، وبحلول عام 1909م وصل عدد المطابع إلى 131 مطبعة في كافة أنحاء مصر. وأدخلت مصلحة المساحة أول طابعة أوفست عام 1912م.

أما سورية فقد عرفت الطباعة قبل لبنان، وذلك بظهور مطبعة حلب للبطريرك دباس عام 1706م. ولكن اختفاءها السريع وهجرة مهندسها الأول عبدالله زاخر إلى لبنان أوقف تقدم الطباعة فيها، إلى أن ظهرت «مطبعة بلفنطي» الحجرية عام 1814م ثم مطبعة الدوماني عام 1855م ومطبعة ولاية سورية بدمشق عام 1864م، التي أنشأتها الحكومة التركية.

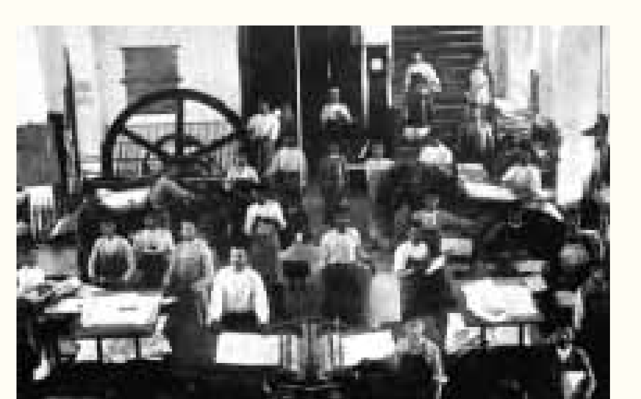
قيل في الستينيات: القاهرة تكتب وبيروت تطبع وبغداد تقرأ..

وفي العراق عُرفت الطباعة الحجرية منذ عشرينيات القرن التاسع عشر، وافتتحت أول مطبعـة رسمية عام 1866م، ومطبعة المساحة «بالأوفست» عام 1925م. وظهرت أول مطبعة في القدس عام 1830م. أما أول مطـبعة في الأردن فقـد بـدأت في عام 1922م.

وفي المملكة العربية السعودية ظهرت «مطبعة ولاية الحجـاز» عام 1882م، وكانت تدار بالقدم، ثم أنشئت المطبعة الأميرية التي صدرت عنها صحيفة «الحجاز»، وفي عام 1919م أنشئت مطبعة «القبلة»، وعمل جلالة الملك عبدالعزيز، يرحمه الله، على تطوير هذه المطبعة وأطلق عليها اسم «مطبعة أم القرى». وأرسل 17 طالباً للتخصص في الطباعة في مطبعة بولاق المصرية. وأنشأ السلطان عبد الحميد الثاني أول مطبعة باليمن عام 1877م. كما عرفت أول مطبعة حجرية بالسودان حوالي عام 1880م. وعرفت الطباعة في البحرين عام 1939م. وفي الكويت عام 1947م. وقطر عام 1956م. ولم ينقض منتصف القرن العشرين إلا وكانت المطابع قد عمّت كل عواصم العالم العربي.

ورغم أن الطباعة بدأت في تاريخ مبكر في كل من بيروت والقاهرة، إلا أن ظروفاً مختلفة سمحت لهذه المهنة في الانتشار والتطور في بيروت بشكل خاص، لدرجة أن قيل في الستينيات «القاهرة تكتب وبيروت تطبع وبغداد تقرأ!». ولاشك أن بيروت كانت ولازالت رغم سنين الحرب الأهلية من أكبر مراكز الطباعة في الوطن العربي. بل وكانت لسنوات مُصدرة لخبرات طباعية إلى دول الخليج، حيث ساهمت في إنشاء عدد كبير من المطابع .

وكما كانت بيروت سباقة في الطباعة ، كانت سباقة في حرفة فرز الألوان، وهي في الأساس حرفة مستقلة عن المطبعة نفسها ، وقد اشتهر فيها من اللبنانيين الأرمن بشكل خاص ، وهم حرفيون ماهرون أتقنوا فنوناً مشابهة كالتصوير الفوتوغرافي وغيره.


المطبعة الكاثوليكية في بيروت أواخر الأربعينيات


قسم صف الحروف في مطابع الأهرام القديمة

استثناء طباعي

«.. ابتداءً من سنة 1961م ظهرت المطابع الكبيرة في المنطقة الشرقية من البلاد، لتواجه مطالب التطور الذي أصاب هذا الجزء من المملكة بعد التقدم في استخراج البترول وتكريره، ولتلبي رغبات التجار والشركات، لا سيما شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو) التي كانت تطبع أغلب مطبوعاتها في بيروت.

وكان قد صدر قانون في السعودية يمنع طبع أي مطبوع خارج المملكة، واستثنيت من هذا القانون مجلة (قافلة الزيت) ريثما تتمكن المطابع السعودية من طبعها بنفس المستوى الذي تطبع عليه في لبنان.»

الدكتور خليل صابات في كتابه (تاريخ الطباعة في الشرق العربي) ص 335

الطباعة المعاصرة

أبقت الطباعة المعاصرة على جميع فنون وتقنيات الطباعة الأولى، لكنها من جانب آخر طورتها، وأضافت إليها القدرة على الطباعة الملونة الكاملة، كما أضافت إليها دقة متناهية، لكن التطور الأهم والأبعد أثراً كان السرعة الطباعية الفائقة، وليس أدلّ على ذلك من الصحف اليومية التي تمكنت من أن تطبع ملايين النسخ بعشرات الصفحات الملونة. شيء من هذا القبيل لم يكن ممكناً في الماضي، لا بل إن هذه الصحف لم تكن تتصور يوماً أنها سوف تطبع صوراً ملونة وبعضها لا يطبع بهذه الصور حتى الآن! وقد عزّز هذه القدرات في العشرين سنة الأخيرة دخول الكمبيوتر، خاصة في عملية إخراج الصفحات وتحسين الصور وضبط الطباعة.

الأوفست

معظم مطبوعات اليوم تطبع بطريقة الطباعة الملساء المعروفة باسم (الأوفست)، وهي تقنية طباعية عالية الدقة، عُرفت منذ أكثر من مئة عام، مطورة من أفكار الطباعة الحجرية. وتعتمد على فكرة تنافر الدهن والماء في الألواح الطباعية. فالمساحات التي عليها الأصل المطلوب طباعته تكون دهنية السطح بينما تكون بقية اللوح قابلة لمرور الماء عليها. ولما كانت أحبار الطباعة دهنية التكوين فإن المساحات الدهنية في اللوح تلتقط اللون بينما تظل الأجزاء الأخرى المرطبة بالماء بلا لون، ومن هنا يكون اللوح جاهزاً للطبع على الورق.

على آلات الأوفست يمكن إكمال طباعة مطبوعة بعدة ألوان مرة واحدة عبر وحداتها، التي تتولى كل منها طباعة لون محدد. وهذه الطريقة هي المفضلة في طباعة الصحف والكتب والمجلات الملونة، لدقتها وسرعتها وإنتاجيتها العالية.

لكن قبل البدء في الطباعة لابد من العديد من التجهيزات اللازمة من صف للنصوص وإخراج فني للصفحات واختيار للألوان وإعداد للصور.

تجهيز النصوص

يعتبر (صف) النصوص الركن الأساس في عمليات الطباعة، حيث لا يجب أن ننسى أن المطبعة وجدت أساساً لصف نصوص الكتب وطبعها. وهناك في هذه المرحلة الطباعية عدة طرق لجمع النصوص:

١- الصف اليدوي: تجمع فيه الحروف البارزة يدوياً على مجرى معدني لتكوين كلمات ومن ثم أسطُر، ترتب على إطار معدني للطبع مباشرة، وتكون فيه الحروف مقلوبة الاتجاه.

٢- الصف الآلي: ويتم عبر لوحة مفاتيح تُصب بالضرب عليها الحروف المكونة للنص آلياً في أسطر وأعمدة تكون جاهزة للتركيب على الإطار المعدني للطبع.

٣- الصف التصويري: وقد ظهر منذ الستينات. وفيه يتم صف النصوص على لوحة مفاتيح، بينما يقوم الجهاز بطبع النصوص تصويرياً من فيلم دقيق بداخله على ورق فوتوغرافي يستخدم كأصل للطباعة.

أما في مطابع اليوم، فإن معظم عمليات صف النصوص وتصميم الصفحات تتم على كمبيوترات خاصة. ومن خلالها يمكن الحصول على نموذج نهائي لشكل الصفحة المطبوعة.


آلة عمل الألواح المعدنية (البليتات)


عملية تجميع الأفلام على الطاولة المضيئة


آلة طباعة أوفست حديثة متعددة الرؤوس

الإخراج الفني

تتكون الصفحة المطبوعة من نصوص وعناوين وصور ورسوم، إضافة إلى رقم الصفحة. وفي إخراج (تصميم) الصفحة يراعى ترتيب هذه العناصر بحيث تخدم هدف المطبوعة، وتقدم مادتها بشكل جذاب ومريح.

اللون في الطباعة

الطباعة من حيث المبدأ نص أسود على ورق أبيض. هكذا كانت النشرات الأولى ولازال كثير منها إلى يومنا هذا. واللون الأسود هو الأكثر شيوعاً في طبع النصوص، ومن ضمنه هذا النص الذي تقرأه، وذلك لوضوحه وسهولة قراءته، خاصة على الورق الأبيض الذي يكثر استخدامه.

مع مرور الزمن دخلت ألوان جديدة إلى الطباعة، حتى البدائية منها، سواء أكان ذلك في النصوص أم في الزخارف التي تظهر على أطراف الكتب الدينية وغيرها. وكانت هذه الزخارف الملونة تطبع بألوان صرفة، أي جعل كل شكل أو جزء منها بلون محدد مثل الأصفر والأحمر أو الأزرق أو غيرها. ولم يكن متيسراً في بدايات الطباعة مزج الألوان خلال عملية الطباعة، فكان كل لون يطبع بمفرده خلال عملية طباعية قائمة بذاتها ثم يأتي دور اللون الذي يليه.

الصور نفسها، التي كانت قبل ظهور التصوير الفوتوغرافي لوحات فنية، كانت تطبع بألوان منفصلة، كل لون على حدة. ومن أجل أن تظهر الصورة بوضوح، كان عدد الطبعات فوق بعضها البعض يصل أحياناً إلى العشرات.

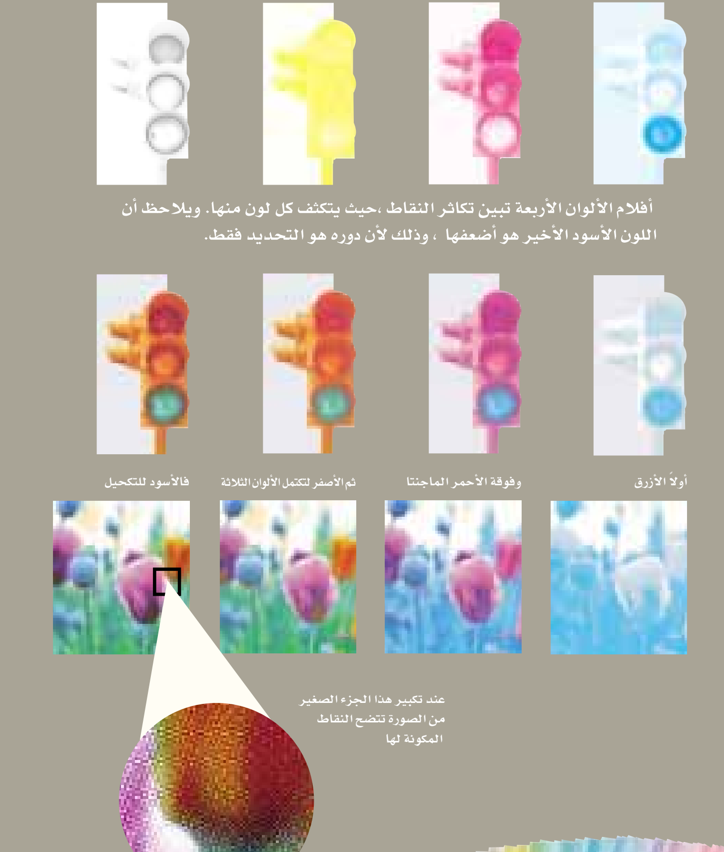
في مرحلة متوسطة استخدمت عدة طرق لطبع الألوان وخصوصاً ألوان الصور. فمهما كانت طريقة الطباعة، سواء أكانت حجرية أم حفراً على المعدن أم المطاط أم مكائن الأوفست الحديثة أم غيرها، كان لابد من عملية انتقاءٍ للألوان، كل لون على حدة ولو بالبصر ليسهل طبعها. وهكذا طبعت الصور والمجلات منذ بدايات القرن العشرين. ولعلنا نذكر الكثير من المجلات والصحف المصرية حتى عقدي الخمسينيات والستينيات وقد طبعت ملونة بأساليب الحفر على المطاط والمعدن.

إن أهم ما حملته الطباعة الحديثة هو إمكانية طباعة الصور ذات الألوان الممزوجة والمتداخلة كما هو الحال مع أية صورة فوتوغرافية.

لقد اختصرت طباعة الألوان في أسلوبين:

١-الطباعة بالألوان المنفردة: والتي يتم اختيارها قبل الطبع وتمزج أحبارها حسب اللون المطلوب. وتُسهل عملية اختيار الألوان كتيبات خاصة تتضمن آلاف الألوان بدرجاتها.

٢- الطباعة بالألوان الممزوجة: وهي طريقة تستخدم في طباعة الصور الملونة والألوان المتدرجة. ويتم ذلك عن طريق عملية تسمى (فرز الألوان). فما هو فرز الألوان؟



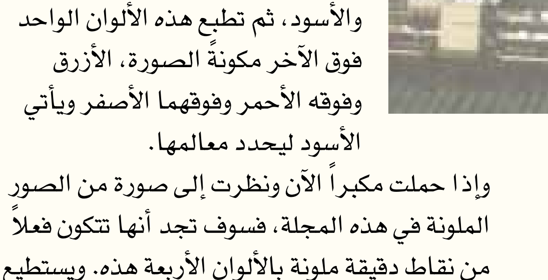
أفلام الألوان الأربعة تبين تكاثر النقاط ،حيث يتكثف كل لون منها. ويلاحظ أن اللون الأسود الأخير هو أضعفها ، وذلك لأن دوره هو التحديد فقط.

عند تكبير هذا الجزء الصغير من الصورة تتضح النقاط المكونة لها

كتيب الألوان الجاهزة.

الألوان تفرز إلى أربعة فتطبع سوية لتعود وتجتمع.

إذا نظرت إلى الصورة الملونة فستجد أن فيها ألواناً ممزوجة لا حدود لها. ومن أجل طباعة هذه الصورة تفكك إلى ألوان الطبيعة الأساسية الثلاثة، وهي الأزرق والأحمر (الماجنتا) والأصفر، مضافاً إليها اللون الأسود. عملية التفكيك هذه تتم عبر استخدام شبكات من النقاط الناعمة، حيث تستخلص نقاط كل لون على حدة في فيلم خاص بهذا اللون فيصبح لدينا أربعة أفلام، وإذا وضعت هذه الأفلام فوق بعضها تعود الصورة لتتشكل من جديد، وهذا ما يحدث خلال طبعها بالضبط، أي تفكيك ألوان الصورة إلى الألوان الأربعة ، هي الأزرق والأحمر والأصفر والأسود، ثم تطبع هذه الألوان الواحد فوق الآخر مكونةً الصورة، الأزرق وفوقه الأحمر وفوقهما الأصفر ويأتي الأسود ليحدد معالمها.



أحبار الألوان على الوحدات الأربع لطابعة الأوفست

وإذا حملت مكبراً الآن ونظرت إلى صورة من الصور الملونة في هذه المجلة، فسوف تجد أنها تتكون فعلاً من نقاط دقيقة ملونة بالألوان الأربعة هذه. ويستطيع هذا النظام اللوني أن ينقل كل الألوان التي يمكن رؤيتها في أية صورة بدقة فائقة، وهي تصل إلى ملايين الظلال، ولا يعجز هذا النظام سوى عن قلة من الألوان التي تتطلب أحباراً طبيعية خاصة.

إلى الألواح الطباعية

تُجهز أفلام الصفحات التي تحمل الصور والنصوص المرغوب طباعتها، كل فيلم مخصص للون واحد. ويتم تعريض الأفلام ضوئياً على سطح الألواح الطباعية (البليتات)، وهي ألواح معدنية رقيقة حساسة للأشعة فوق البنفسجية، وينتقل الأصل من الفيلم إلى اللوح. وبعد (تحميضه) تتحول المساحات السالبة في الفيلم إلى مساحات موجبة في اللوح، وفي النهاية تتجمع لدينا أربعة ألواح طباعية للتركيب على آلة الطباعة.

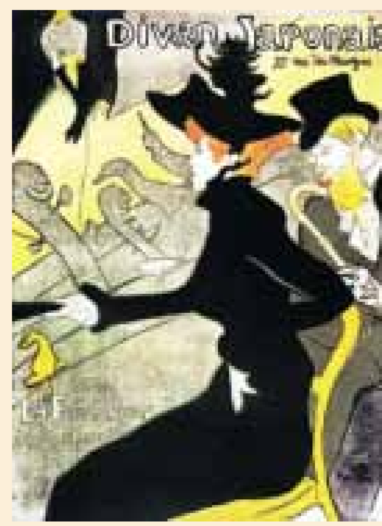
اللوح الطباعي إلى اليمين وصفحة الجريدة إلى اليسار

من الألواح الطباعية إلى الورق

تتكون آلة الأوفست من وحدات طباعية، تتولى كل وحدة طباعة لون واحد من الألوان . وبالتالي يركب على كل وحدة اللوح الطباعي واللون الخاص بها. ويتم تركيب اللوح على اسطوانة في داخل الآلة. وعند التشغيل يلتقط اللوح اللون من اسطوانة التلوين المجاورة له، وينقل الطبع إلى اسطوانة مطاطية أخرى، تنقله بدورها إلى الورق الذي يبدأ بالمرور عبر الأسطوانات لتحمله من لون إلى لون.

الطباعة الحجرية (الليثوغراف)

ظهرت بعد منتصف القرن التاسع عشر، وفيها يستخدم لوح من حجر اللايمستون المصقول، ليرسم عليه الأصل بمادة شمعية قادرة على التقاط الحبر الطباعي دون بقية اللوح، ثم يضغط عليه الورق فيلتقط الطبعة. نجحت هذه الطباعة في نقل الرسوم اليدوية وصفحات الكتب المخطوطة وبألوان مباشرة. وقد اعتمدها الفنانون في طبع نسخ من أعمالهم. ومن هذه الطريقة الطباعية انطلق فن الملصقات، خصوصاً على يد فناني المدرسة الانطباعية. لقد تجاوزت المطبعة الطباعة الحجرية، ولكنها تحولت إلى أداة فنية راقية لها جمهورها العريض من الفنانين ومحبي الأعمال الفنية.



ملصق مطبوع على الحجر للفنان تولوز لوتريك

تقنيات وحِرَف طباعية ..إضافية

الطباعة البارزة والغائرة

وفيها يتم حفر الرسوم والخطوط على قطعة من المعدن بطريقة كيميائية، وتركب القطعة على آلة خاصة لتنقل الرسم بالضغط على الورق.

البصم الذهبي

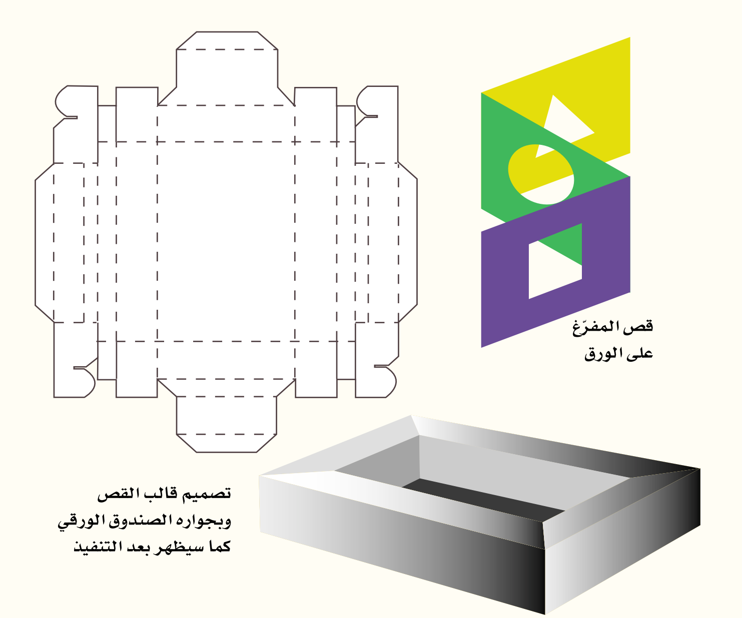
ويستخدم فيه لوح معدني محفور عليه الرسم بارزاً. وعند الطبع يتعرض المعدن للتسخين ويضغط على شريط من اللون المعدني (ذهبي أو فضي مثلاً) فينقل اللون مطبوعاً على الورق.

القص المفرّغ

كثيراً ما نشاهد أوراقاً مطبوعة وعليها تفريغ لإظهار شكل ما، ويتم ذلك بإعداد قالب سكيني بشكل القص المطلوب وتركيبه على آلة للضغط على الورق، واحدة واحدة لتفريغه . يضيف القص المفرغ آفاقاً من الدهشة والطرافة للمطبوع إضافةً إلى وظائفه الطباعية الأخرى.



«قل هو الله» منفذة بالتنفير البارز، وكلمة «أحد» منفذة بالبصم الذهبي



قص المفرّغ على الورق

تصميم قالب القص وبجواره الصندوق الورقي كما سيظهر بعد التنفيذ

التجليد كالفياطة الراقية

أكثر ما يجذب المتنقل بين رفوف المكتبات تلك الكتب المتراصة بلون واحد، وقد زينت حواشيها زخرفة طبعت بماء الذهب أو الفضة. فالجلد الأسود أو الكحلي أو البني أو حتى الأحمر الذي يكسوها يجعلها في نظر الباحث بينها في مرتبة الكتب النفيسة.

فالأشخاص الذين يرغبون في الاحتفاظ بكتب أو وثائق أو حتى مجلات يعتبرونها مميزة، يعمدون إلى تجليدها في محاولة لحفظها من عوامل الزمن. والتجليد كما الخياطة الراقية، تصاميم مختلفة بأنواع من الجلد تبدأ بالطبيعي وتنتهي بما هو من مشتقات البلاستيك. وأكثر الأنواع المطلوبة هو الجلد الاصطناعي أو ما يسمى بـ «سكاي» لرخص ثمنه ومتانته، وقد يمزج البعض بين نوعين: جلد اصطناعي للغلاف، وجلد طبيعيٍ لظهر الغلاف يكون من لون مختلف، يشبه ما كان رائجاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

والتجليد فن يتقنه حرفيون قلة في القاهرة وبيروت ودمشق. وبسبب تناقص أعدادهم تراجع الراغبون في تجليد كتبهم. فالأدباء والشعراء والمؤرخون ورجال العلم صاروا يكتفون بالغلاف المصنوع من الورق المقوى. في حين أن التجليد يقتصر على المقتنيات التي تحتفظ بها المؤسسات، وأطروحات الدكتوراه، وإنتاج المؤسسات الصحافية للتوثيق والكتب الدينية.

يعتمد الحرفي في عمله على تقنيات مازالت بدائية في عصر التطور التكنولوجي. فالصفحات يتم رصها وجمعها بواسطة نوع من الصمغ الاصطناعي، وهو يعتبر أفضل من الصمغ العربي لاحتوائه على مواد تمنع العث من التغلغل إلى الورق. وبعد اختيار نوع الجلد ولونه لكسوة الكتاب به، يتم اختيار نوع الحرف وحجمه لطباعة اسم الكتاب ومؤلفه، وفي أحيان كثيرة يعمد مقتنو الكتب إلى طباعة أسمائهم عليها، وبعضهم يختار زخرفة معينة للغلاف. ويتم تحويل كل ذلك إلى كليشيهات من الرصاص، وبواسطة المكبس والحبر الذي تم اختياره، في معظم الأحيان من ماء الذهب، يجري طبع الكلمات على الغلاف باستخدام الحرارة.

الرغبة في التجليد لا تقتصر على الجلد، فالبعض يختار القماش المخملي، لكنه غير مرغوب بكثرة لأنه سريع العطب، ويلتقط الغبار بسرعة. وهناك من يعمد إلى تغيير أغلفة كتب قديمة واستبدالها بأخرى، لكن ثمة كتب قديمة تكمن قيمتها في أغلفتها، وهذه لا تنزع إنما يتم ترميمها.

الورق بالقياس .. والملمس

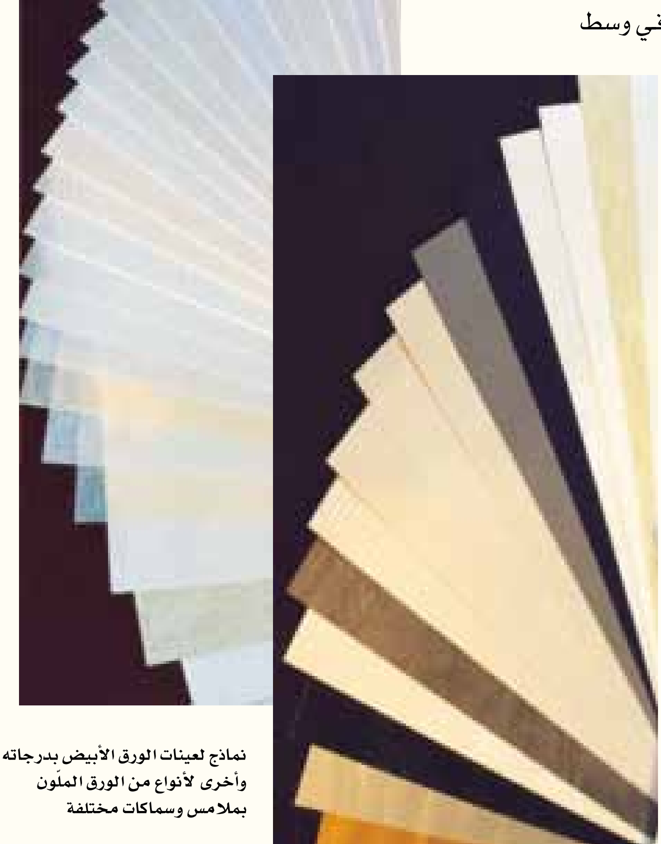
امسك هذه الصفحة، فهي من الورق غير المصقول الذي يتمتع بنوعية ممتازة. ورق الصحف من عائلة هذا الورق نفسها، ولكنه أقل جودة وللاستهلاك اليومي. أما ورق القافلة الأساسي فهو مصقول ومطفي، أي من دون أي لمعان لتوفير الراحة في القراءة، وذلك على عكس الملف المصور في وسط المجلة، الذي هو أكثر سماكة وأشد لمعاناً. أما الغلاف فهو كرتوني وينتمي إلى الأوزان الأثقل مثل التي تستخدم في أغلفة الكتب وغيرها، حيث أن الورق يحسب بوزن المتر المربع منه فيقال ورق 250 جرام أو 80 جرام وهكذا.

إن أنواع الورق كثيرة وبلا حدود، تختلف في ملمسها ونوعيتها وجودتها وسماكتها وأحجامها.

أنواع الورق المصقول تعتمد جودتها على متانته ومقاومته للتمدد مع الرطوبة. أما الورق غير المصقول فأجوده وأجمله ملمساً وأغلاه سعراً ما يحتوي على نسبة عالية من القطن. وقد راج في السنوات الأخيرة أنواع خشنة من الورق «المدوّر»، الذي بدأ التفكير به لحماية البيئة وانتهى بزيادة أرباح مُصنّعيه.

ويأتي الورق في أغلب الأحيان بمقاسات عالمية موحدة، تناسب أحجاماً من الكتب والمجلات، اصطلح على تسميتها بالقطع الكبير والمتوسط والصغير. ومن أشهر هذه الأحجام مقاسات (70×100) و(90×60) و(82 ×57) سنتيمتر، والأخير خاص بالكتب الصغيرة. وفرخ الورق يُطوى أربع طيات أو أكثر حسب حجم الصفحات المطلوبة، وتحسب الصفحات على أساس الملزمة وهي 16 صفحة مثل صفحات هذا الملف، ولهذا فإن عدد صفحات الكتب والمجلات محكوم بأن يكون مشتقاً من أربع صفحات على الأقل، ولا يستطيع الناشر أن يضيف صفحة واحدة أو ثلاث صفحات مثلاً، بل هو ملزم أن يضيف 4 أو 8 أو 12 صفحة ..إلخ.

وبشكل عام، فإن الكتب المدرسية والكتب العادية المتوفرة في المكتبات تطبع على ورق تتراوح زنته ما بين 70 و 80 غراما، أما أغلفة الكتب فتصنع من ورق يصل وزنه إلى حوالي 300 غرام.



نماذج لعينات الورق الأبيض بدرجاته وأخرى لأنواع من الورق الملون بملامس وسماكات مختلفة

الورق والعالم

ينتج العالم سنوياً نحو 300 مليون طن من الورق لتلبية شراهة المطابع. وتشير إحصائيات نشرت مؤخراً، أن الولايات المتحدة الأمريكية وحدها تطبع بليوني كتاب و25 بليون صحيفة يومية سنوياً.

وإذا كان هناك من يستخف بحجم المنشورات الدعائية الصغيرة والمطبوعات الصغيرة الحجم لغايات تجارية، فعليه أن يعرف أن الأمريكيين يتلقون في البريد سنوياً نحو 90 بليون مطبوعة دعائية أو تجارية عبر البريد.

رحلة كتاب من قلم المؤلف إلى رفوف المكتبات

لن تنسى المطبعة سبب وجودها الأول: الكتاب، إذ أن لديها المقدرة على إنتاج نسخ فخمة وطبعات شعبية منه في آن واحد.
بعد استلام نص المؤلف تبدأ عملية (صف النص) ومن ثم الإخراج الفني على الكمبيوتر. وتتم هذه العملية وفق تصميم مدروس، يحدد حجم الكتاب وأحجام الحروف ونوعية الخطوط المستخدمة بالإضافة إلى شكل الغلافين الأمامي والخلفي.
ثم يدفع بنموذج منه إلى المصحح الذي يراجع لغة الكتاب ويصحح الأخطاء الطباعية «وما أسهل تسربها إلى نص صحيح في الأصل».
بعد اكتمال التصحيح وموافقة المؤلف على النماذج النهائية، تصور الصفحات على أفلام طباعية وتجمّع في شكل «ملازم» لتطبع على أفرخ ورقة كبيرة.
عادة ما تجمع الملزمة الواحدة ثماني أو ست عشرة صفحة على وجهي الورقة. ويتم ترتيب الصفحات في الملزمة بطريقة معينة حتى تأتي الصفحات بعد الثني والقطع مرتبة.

كتب اليوم أكثر أناقة ودقة، لأن الإمكانات الطباعية الحديثة أعادت للكتاب النفس الفني الذي عُرف به عندما كان مخطوطاً

وبعد الطبع والطي والقص، يدخل الكتاب مرحلة التجليد بضم الصفحات، إما عن طريق الخياطة أو التدبيس أو التغرية، ثم يضاف إليه الغلاف الذي يطبع منفصلاً لاختلاف ألوانه وورقه. وربما استعمل الكرتون المغلف بالقماش أو الجلد الصناعي أو البلاستيك أوالمخمل. وقد يستخدم البصم الذهبي لنقش اسم الكتاب على الغلاف. وأحياناً تطبع سترة خارجية خاصة تحمي التجليد وتزيّن الكتاب في رفوف المكتبات.



تستخدم مطابع الصحف بكرات الورق الكبيرة التى تمر مسرعة وتطبع على الوجهين دفعة واحدة

إن كتب اليوم أكثر أناقة ودقة، لأن الإمكانات الطباعية الحديثة سمحت بنقل أفضل للرسوم والصور الجيدة، وأعادت للكتاب النَفَسَ الفني الذي عُرف به عندما كان مخطوطاً.

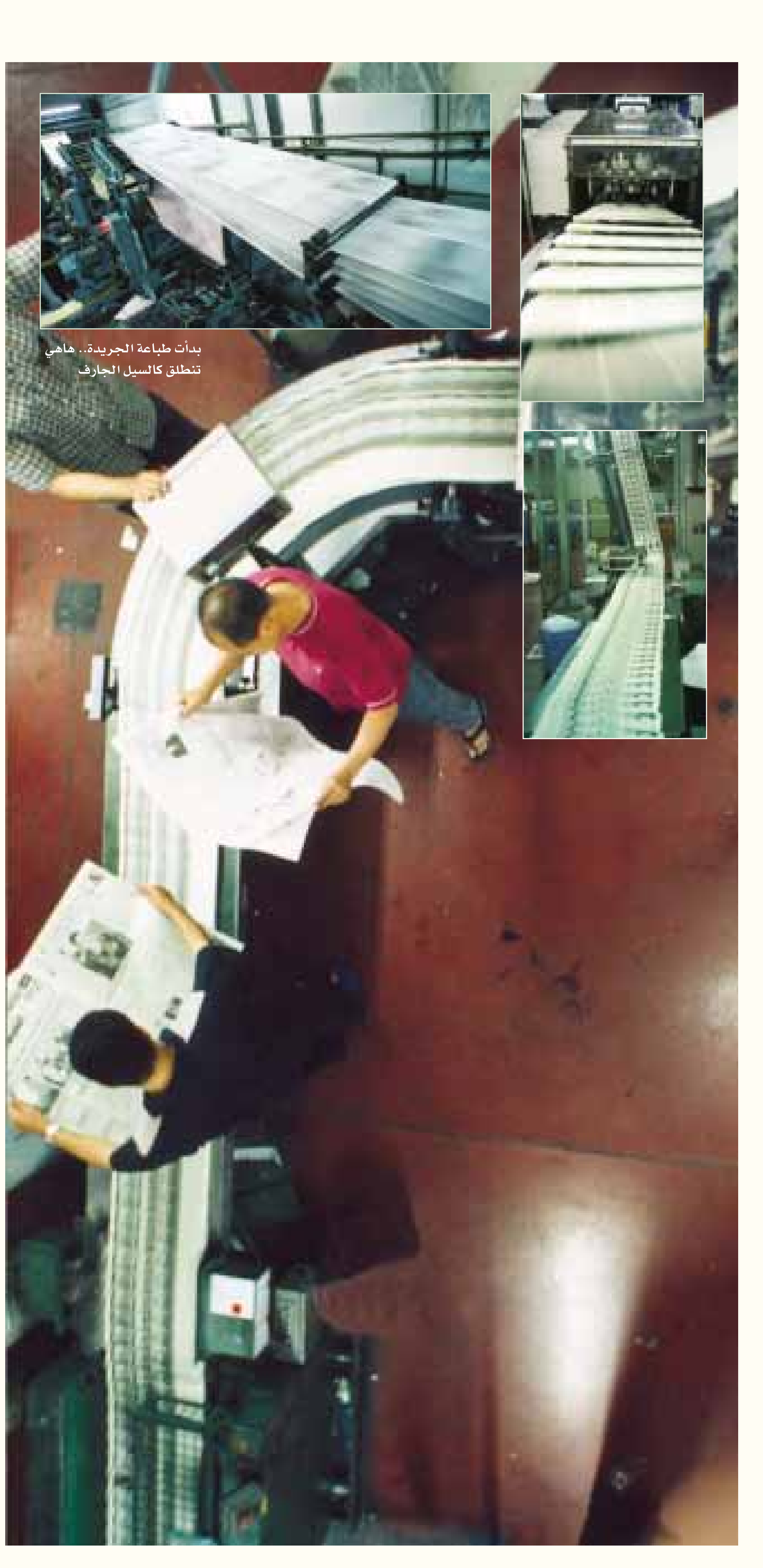
الصحف

تتميز مطابع الصحف الحديثة بقدرتها على طباعة كمية كبيرة منها، في مدّة زمنية قصيرة لا تتجاوز بالعادة بضع ساعات.

وتبدأ هذه الطباعة بالصفحات غير الإخبارية، كالصفحات الثقافية والاقتصادية وغيرها انتهاءً بالصفحتين الأولى والأخيرة. فالجريدة التي تحاول أن تحصل على آخر الأنباء الهامة قبل أن «تقفل العدد» كما يقال، تنهي عمليات التحرير والصف في وقت لا يتجاوز في العادة منتصف الليل، لأن الجريدة يجب أن تكون مطبوعة جاهزة للتوزيع مع ساعات الفجر الأولى، لأنها إن تأخرت في الوصول إلى القارئ في الوقت المناسب، ضاعت عليها فرصة البيع.

تُطبع الصحف على آلات أوفست ضخمة تستخدم بكرات الورق الكبيرة. ويمر الورق كشريط يطبع على الجانبين. وفي الجزء الأخير من الآلة توجد وحدة للطي والقص، فتخرج الجريدة وحدة كاملة مطبوعة مطوية بكل صفحاتها وجاهزة للتوزيع.

وبسبب الازدهار المبكر للصحافة في بيروت والقاهرة انتشرت الطباعة الصحفية الحديثة هناك قبل العواصم العربية الأخرى مع فارق أن مطابع الصحف المصرية أكبر بكثير بسبب حجم التوزيع. وفي العقدين الأخيرين انطلقت طباعة الصحف في المملكة لتواكب الإمكانات الحديثة، بل حققت أكثر من سبق، حيث نجد اليوم لدى عدد من هذه الصحف معدات حديثة بإمكانات تكاد تزيد عن حاجة السوق المحلية.



بدأت طباعة الجريدة.. هاهي تنطلق كالسيل الجارف

أنواع المطابع

هناك المطابع العامة التي تطبع كتباً وكتيبات وملصقات وتقارير سنوية. وهناك مطابع متخصصة مثل مطابع العلب والتغليف والكرتون ومطابع الأظرف ومطابع ورق الكمبيوتر، ثم هناك مطابع صغيرة متخصصة بنوع خاص من الطباعة الفاخرة مثل التي تعتمد التذهيب والتفريغ وما شابه ذلك. إضافة إلى مطابع العملات والأوراق الرسمية والأمنية مثل الجوازات والهويات، وهي قليلة العدد والتي تكون عادة بإشراف حكومي. ولكن تبقى أهم المطابع هي مطابع الكتب ومطابع الصحف التي هي أساس مهنة الطباعة والمحققة لوظيفتها الأسمى.

ماذا تطبع المطبعة اليوم؟

إذا دخلت إلى مكتب ما مستفسراً، فإن الموظف قد يدفع إليك ببعض (المطبوعات)، التي ربما يتصدرها (بروشوراً) جميلاً من عدة صفحات، مطبوعة على ورق قد يكون مصقولاً أو بملمس خشن لذيذ. تقودك الصفحة الأولى بهدوء إلى الداخل الذي رتبت فيه علامات وصور ونصوص أنيقة تُغنيك عن كل سؤال.

يُعبّر (البروشور) عن الجهة التي أصدرته: من هي وماذا تفعل؟ وهو وسيلة للدعاية هادئة وأنيقة، ولكنه، في نفس الوقت، استعراض لأقصى إمكانيات المطبعة التي أنجزته. وإمعاناً في تأكيد حضورها، ترسل العديد من المؤسسات رسالة إخبارية إلى عملائها، تتولى المطبعة طبعها على ورق خفيف، سهل التداول.

في أيامنا هذه، ساد التعريف بالشخص من خلال تقديمه لبطاقته الشخصية. والمؤسسات والشركات تحتاج إلى قرطاسية كاملة من البطاقات الشخصية المعرفة للموظفين، والخطابات الرسمية وأوراق الفاكس والظروف المصممة بعناية، ضمن سياسة المؤسسة الدعائية. في مثل هذه المطبوعات تقدم المطبعة أقصى ما لديها من طباعة الأوفست والبصم المذهب والأحبار المعدنية والطبع النافر والغائر على ورق متميز وربما مصنوع يدوياً.

تحتاج المطبوعات الشخصية للتمييز. وبسبب التنافس الاجتماعي، فإن بطاقات الدعوة إلى الأفراح لا تتكرر. وكل دعوة يجب أن تكون مدهشة وغير متوقعة. وتكون أسلحة المطبعة في هذه

الحالة الرسوم المزخرفة والخطوط الأنيقة والألوان المبتكرة والثني والتفريغ المفاجئ، على أغلى أنواع الورق.

وما سقناه ليس إلا نماذج بسيطة لتعامل المطبعة مع مطبوعاتها. فلكل مطبوعة قصة خاصة ومسار مبتكر داخل المطبعة. وإضافة لكل ما ذكرناه تطبع المطبعة الأدلة والتقاويم والتقارير والصور واللوحات وكل ما يخطر بالبال.

في الطباعة ما من اختراع ألغى الآخر.. بل طوّره، وأكبر المطابع لم تلغ الحاجة إلى المطبعة الصغيرة التي يديرها شخص واحد

إن من يتعمق في هذه الطرق الطباعية يفاجأ بقدرتها على الرغم من اعتمادها على مواد ووسائل غير مضمونة، بمعنى أنها تتأثر بالبرودة والحرارة والرطوبة، مثل لوح القصدير المطوي واسطوانة المطاط ونقط الحبر، التي تقفز إلى الورق خلال عملية الدوران التي تمرر الورقة على الأسطوانة. بل الورق نفسه قابل للتمدد أو الانكماش مما يؤثر بشكل كبير على النتيجة الطباعية.

وبالمقابل يفاجأ الإنسان بالتطور الذي شهدته آلات الطباعة خلال العصر الحديث، مما جعلها تحقق هذه الطباعة الدقيقة والواضحة في النصوص والصور. فلكي تظهر الصورة الملونة المطبوعة بالألوان الأربعة نقية واضحة، لا يجوز أن تحيد النقاط عن مواقعها ولو جزءاً من المليمتر. أما اليوم فإن المتفحص لكل مراحل الطباعة يشعر أنه آن الأوان لأن تفارق هذه الحرفة العظيمة والعملاقة تلك الأساليب المتوارثة من أيام غوتنبرغ إلى أساليب أبسط وأقل تعقيداً، مستفيدة بنوع خاص من الأنظمة الإلكترونية المعاصرة وهو ما أخذ يحدث بالفعل.



آلة طباعة على البلاستيك



آلة طباعة رقمية حديثة

مطبعة.. لخدمة القرآن الكريم

«بسم الله الرحمن الرحيم، وعلى بركة العلي القدير.. إننا نرجو أن يكون هذا المشروع خيراً وبركة لخدمة القرآن الكريم أولاً، ولخدمة الإسلام والمسلمين ثانياً، راجياً من العلي القدير العون والتوفيق في كل أمورنا الدينية والدنيوية، وأن يوفق هذا المشروع الكبير لخدمة ما أنشىء لأجله، وهو القرآن الكريم ولينفع به المسلمين وليتدبروا معانيه».

بهذه الكلمات وضع خادم الحرمين الشريفين، الملك فهد بن عبدالعزيز حجر أساس «مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف» بالمدينة المنورة والذي افتتح عام 1405هـ، وبطاقة طباعية تبلغ 10 ملايين نسخة للوردية الواحدة سنوياً.

ومنذ إنشائه حتى اليوم أنتج المجمع 90 إصداراً في 195 مليون نسخة من المصاحف الكاملة والأجزاء والترجمات وكتب السنة، وبأكثر من 40 لغة.

آفاق التطور

ما سقناه حتى الآن يعبر ببساطة عن الطرق المتبعة عموماً في معظم المطابع. ولكن العصر الحديث فتح آفاقاً رحبة جداً أمام تطور الوسائل الطباعية التي تهدف جميعها إلى تحقيق غايتين رئيستين هما: تحسين مستوى الإنتاج الطباعي لناحيته الجمالية، واختصار الوقت الطويل.

بالأمس، ظهر الكومبيوتر كاختراع غالي الثمن، ولكنه انتشر بسرعة، ودخل المطابع وصولاً إلى أكثرها تواضعاً ليختصر وقت صف الأحرف والإخراج بشكل كبير. واليوم...

مرت القافلة بمعظم تقنيات الطباعة، بدءاً بالحروف الرصاصية مروراً بصف الحروف الآلي ثم التصويري وطباعة الأوفست، واليوم تتم طباعة مجلة القافلة على سبيل المثال وفق تقنية هي أحدث ما تم التوصل إليه في طباعة الأوفست. ويتمثل هذا التطور في أن نظاماً آلياً حديثاً تمكن من اختزال مرحلة عمل الأفلام، فصارت الصفحات تنتقل مباشرة من الكومبيوتر إلى اللوح المعدني، من دون الحاجة لأفلام فرز الألوان التي تستهلك وقتاً طويلاً، وتبقى مصدر أخطار فنية تستوجب الحذر. وهذا النظام الجديد الذي تطبع به القافلة هو الأول من



نوعه في المملكة العربية السعودية، ويمثل أول افتراق مهم عن أساليب الطباعة المتوارثة.

انتهى الموضوع؟

لا، لم ينته بعد..

فدهاليز المطابع متشعبة، وتحوي أشكالاً مختلفة من الخدمات الطباعية، وإن كانت أقل استعمالاً من طباعة كتاب أو كرّاس.

وفي الطباعة، ما من اختراع ألغى الآخر، بل كان يطوره. وتعدد التقنيات الطباعية التي ذكرناها سابقاً، وبقاؤها جميعها على قيد الحياة في القرن الحادي والعشرين، هو خير دليل على ذلك، فأكثر الأساليب تطوراً في الطباعة الملساء لم يلغ الطباعة الحجرية، التي لا تزال ناشطة لإنتاج أعمال فنية غالية الثمن. وتدنّي كلفة الطباعة الحجرية لم يلغ الطباعة الحروفية التي لا تزال رائجة في كل مكان من العالم. وأكبر مطابع العالم لم تؤد إلى إقفال المطبعة الصغيرة التي يديرها شخص واحد.

فالحاجات إلى المطبوع تختلف من مكان إلى آخر حجماً وكماً ونوعاً، وعالم الطباعة يحوي آلاف الأعمال الصغيرة التي يمكن لعامل في مطبعة متوسطة أن يلبيها..

وحتى بعد وصولها إلى أرقى المستويات في التطور الرقمي، تعرف المطابع الكبرى أن عليها العيش بجوار مطابع صغيرة، وأن عليها أن تبقى على احترامها لأصولها.. هذه الأصول التي تعود إلى غوتنبرغ وما قبله إلى الصين العتيقة والمسمار السومري القديم.

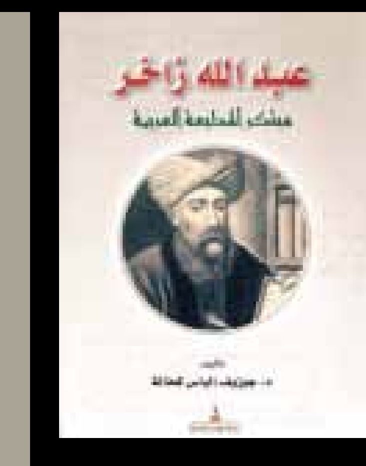


المعاينة.. الطباعية

حين تدخل مطبعة وتتجول بين آلات الطباعة يسكنك شعور غريب. فهذه الآلة الصماء تحوّل الورقة البيضاء إلى ورقة تحمل نصاً وصوراً ورسوماً. تأخذ ورقة تلو الأخرى وتبث فيها (الكلام).

لقد حضرت لتتأكد أن مطبوعاتك سليمة.. تقترب من الطابع.. وهو إنسان يشعر بقيمة خبرته ودقة دوره، وبين فينة وأخرى تراه يأخذ ورقة خرجت للتوّ كي يتفحصها ويتأكد أن العملية الطباعية تسير سيراً حسناً وأن النتيجة سليمة.

ثم تأخذ الورقة أنت وتتأملها بدورك، كل شيء سليم، المشهد مطمئن وجميل. بالنسبة لك نجاح الطبعة أشبه ما يكون بنجاح عملية جراحية لشخص عزيز. مقابل ذلك فإن أي خطأ يُكتشف متأخراً يعتبر مصيبة، حيث لا مجال للتصحيح. الكمية يجب أن تتلف ويعاد طبعها من جديد.



عبدالله زاخر.. مبتكر المطبعة العربية

الدكتور جوزيف كحالة

مركز الإنماء الحضاري، حلب 2002م

كتاب يوثّق السيرة الشخصية لرائد المطبعة العربية عبدالله زاخر، ويلقي الضوء على تجربته الطباعية ومؤلفاته ورسائله مع نماذج من أعماله.

تاريخ الطباعة في الشرق العربي

الدكتور خليل صابات

دار المعارف بمصر 1969م

مرجع هام دوّن فيه الدكتور خليل صابات تاريخ الطباعة العربية منذ نشأتها وحتى أواخر ستينيات القرن العشرين. تناول بالتفصيل والوثائق الطباعة في لبنان ومصر وسوريا والأردن والسعودية.





حكاية الكتاب.. من لفافة البردي إلى قرص الليزر

محي الدين اللبّاد

دار الشروق 1997م

المصمم والرسام المعروف محي الدين اللباد يستعرض في (كتالوج) من 40 صفحة رحلة الكتاب وأشكاله وطرق طباعته عبر العصور، مدعماً بحثه بالمعلومات والصور والرسوم وبأسلوب سلس وممتع.

مصطلحات في المطبعة

هذه بعض المصطلحات الشائعة في كواليس المطابع، بعضها عربية وبعضها من أصول أجنبية مختلفة.

أحرف النصوص

بنط: وأصلها في الغالب (Point) مقياس حجم الحرف في النص. ومن أجل قراءة النصوص يتراوح في العادة ما بين قياس 10 و 16. أما العناوين فهي عادة أكبر.
فونت (Font): وهو يدل على نوع الحرف (الخط)، فمثلاً حروف هذا النص هي من فونت منال بنط 14,5. وفي هذا السياق أيضاً يتم تحديد المسافة المطلوبة بين الأسطر وتسمى (ليدنغ Leading).
عمود: وهو وحدة قياس عرض أسطر النص المتتالية، عادة ما يكون عمود الجريدة في حدود 4 سم في الصحف. (هذا العمود مقاسه حوالي7 سم).

الورق

A4: ورق رسائل مقاس 21x27.9 سم.
A3: ورق الملصقات الصغيرة مقاس 27.9 x 42 سم.
الملزمة(Signature): ما يساوي 16 صفحة من الكتاب.
فرخ الورق: الورق الكامل بحجم (70x100) أو (60x90).
الماعون: رزمة الورق الكبيرة (100 ورقة أوأكثر).
الورق المطفي (Matt): ورق غير لامع.
الكوشيه(Couché): الورق المصقول.

الكتاب

القطع الكبير: مقاس الكتاب 22x32 سم.
القطع المتوسط: مقاس الكتاب 17x24سم.
القطع الصغير: مقاس الكتاب 17x12سم.
المتن: كتلة النص الأساسية في الصفحة.

من أنواع الطباعة

طباعة الويب (Web): طباعة الورق المتصل (البكرات) مثل طباعة الصحف.
طباعة الفلكسو(Flexoprint): تقوم على عمل قوالب خاصة للطباعة على البلاستيك وأكياس التغليف.
طباعة التيبو: الطباعة بالحروف الرصاصية وهي في طريقها للانقراض.
طباعة الأوفست (Offset): الطباعة الملساء من الألواح المسطحة والتي تستخدم في طباعة أغلب كتب ومنشورات اليوم.
طباعة (U.V): وهو نوع جديد من الفارنيش (أي الطبقة اللامعة) الذي يعالج بالأشعة فوق البنفسجية ومن صفاته أنه بالإضافة إلى اللمعان الذي يعطيه يجف بسرعة ويحمي المطبوعة من الخدش.
بروفة (Proof): نموذج قبل الطبع لإطلاع العميل وأخذ موافقته النهائية.
كرومالين: بروفة ملونة من الفرز الملون للتأكد من جودة الصور ومطابقة ألوانها مع الأصل.
بليد (Bleed): حدود قص الصفحة.

صورة الغلاف لمطابع
شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر - جدة